السوق القبلي

وقصص أخرى

obeikandl.com

السوق القبلي وقصص أخرى

محمد علي الشويهدي

لوحة الغلاف : تصوير "محمد بو دجاجة"

الطبعة الأولى 1438 هـ / 2017 م

رقم الإيداع : 296 / 2016 دار الكتب الوطنية بنغازي

ردمك :ISBN 978-9959-919-17-5

© جميع حقوق الطبع والإقتباس والترجمة محفوظة للناشر

ذات العمـاد برج 4 – طرابلس – ليبيـا

هاتف : 00218 21 3350332

E-mail : daralrowadbooks@gmail.com

obeikandi.com

محمد علي الشويهدي

السوق القبلي

وقصص أخرى

obeikandl.com

دار الرواد

obeikandl.com

قول الحاكي

"عين المبدع عدسة تصوِّر المشهد في آن"

الحاكي

obeikandl.com

obeikandl.com

السوق القبلي

- **منذ خمسة عقود ونيِّف .**

كان السوق القبلي ، وكان يمور بالحياة نهارًا ، وفي الليل بالسكون ، ينعم بأمومة العجائز وينهل من حنو الحرائر ، ويتوق إلى خفر العذارى ، ويتماهى وتوجسات الشيوخ ، ويتباهى بعنفوان الفتيان ، ويزهو بكبد الرجال ، ويضيق بالغد الضبابي ؛ فيلوذ بالمدائح والأذكار ويترنم بحكايا العشق همسًا في ليالي القمر والغناء صدحًا في أمسيات عرس أو أصبوحة فرح .

- **بعد خمسة عقود ونيِّف .**

صار السوق القبلي رؤى ومشاهد وأطياف وذكريات تتدافع وتتداخل غير عابئة بتراتبية الزمن مسبوقة بعبق شذاها إلى بياض الورق ، جلية في حين ، هلامية في آن ، مجزأة في كل حين ، لكنها مثابرة ملحاحة تستحث الذاكرة على تجميع فسيفسائها وتنضيد حروفها وتأطيرها في لوحة شاملة ..

* * *

السوق القبلي يقع في حي "سيدي حسين" بين الجامع وتقاطع عمارات النصارى يمينًا ، ومربع أشجار السرو يسارًا بامتداد قصير حاشد يفي بالحاجات الضرورية للسكان ، يتكوَّن من دكاكين صغيرة : بقالة ، جزارة ، خضراوات ، إسكافي ، درَّاجاتي ، حلاقة وختان في آن ، مقهى .

محال ينكفئ جُلّها تحت مظلات خشبية متهالكة مهترئة الأقمشة حائلة متنافرة الألوان لا تكاد تقي من وابل مطر أو لهيب شمس حتى أن سيدي بوسيف الحلَّاق نزع ، ظهر ذات جمعة ، مظلة دكانه في غضب بعد أن شوَّهت ثوبه الأبيض قطرات ماء ملوثة أسقطتها هبة ريح من على المظلة ، رمى بها في وسط الشارع الترابي الذي يشطر السوق القبلي إلى نصفين فعاقت المظلة تدفق مياه الأمطار من عليا الجامع إلى أن تطوَّع فاعل خير يهرع إلى صلاة الجمعة برفعها وصفها إلى جنب حائط فتدفقت المياه مجددًا تغرق الحفر والنقر ، حتى قاربت عمارات النصارى فتجمعت في غدير كبير تسابق إليه الأطفال يخوضون في مياهه الباردة دون خشية على أحذية ؛ فأطفال الفقراء

لا ينتعلون ، وما زُجر ذويهم لهم إلا خشية أن يتبولوا في مراقدهم ليلا .

"زنقة العويلة" شارع قصير مُترب يوازي السوق القبلي ، تضم الزنقة عدة بيوت صغيرة موارية الأبواب عمدًا في آن ، وقسرًا في حين ؛ فقد أمَّن الله الطيبين آنذاك من خوف فتآلفوا حتى صاروا كما لو كانوا عائلة كبيرة تسكن بيوت الزنقة ، ووحَّد الفقر بينهم إذ ليس ثمة فروق في طعام أو شراب أو لباس ؛ فطابت النفوس وتحابّوا وتوادّوا وتصاهروا وانصهروا في بوتقة الانتماء لحمة واحدة رغم أنهم وافدون من غرب وشرق وجنوب الوطن شأن كل المدينة .

أبواب البيوت موارية في كل الأوقات لأن أخشابها الرخيصة تنتفخ إن أمطرت وتتشقق إن قاظت وتصدأ أرتاجها وتتصلب ولا تروج إلا بطرقات قادوم وقطرات زيت وهو عناء وتكلفة غير مبررين .

حين يتسلل الظلام عند آذان المغرب ويطبق على الزنقة بعد آذان العشاء ويبدأ الليل الطويل في فصل الشتاء ، يفرُّ كلٌّ إلى بيته مستأنسًا بضوء خافت ينبعث من

فنار أو شمعة ، أما مصابيح الكهرباء الوهَّاجة فهي رفاهية خُصَّ بها النصارى والأثرياء ، وينـدس تحت بطانية أو عباءة أو رداء اتقاءً للصقيع ، وسعيًا إلى الدفء بعد أن تكون الأم أخرجت كانون الفحم في الغالب إلى وسط الحوش خشية حريق أو اختناق أو نفاد دخان بخور ليلة جمعة ..

فإن حاول طفلٌ التمرد بعد أن يُطفأ الفنار أو الشمعة وأطبق الظلام وعن غير وعي بلذة الدفء في ليالي الشتاء دفع بقدميه الصغيرتين الغطاء وعطس أو تقلب في مرقد ، أو أحدث هسهسة غير مستحبة يصفعه صوت الأب مزمجرًا :

- اخمد!

يخمد ، يستكين الطفل وترحل به عبراته المكتومة إلى نوم اضطراري ويختبئ الآخرون في مراقدهم كالفئران في جحور الخوف حتى إذا ما عمَّ الصمت ثم أطبق وتيقن الوالدان في استغراق الأطفال في نوم عميق تلاصقًا أكثر رغبة في الدفء والمتعة وزينة الحياة الدنيا .

ازدانت زنقة العويلة بالأطفال حتى اكتظت رغم الأمراض السارية والبطون الضامرة فصار ظاهرا للعيان

الازدحام الملفت للأطفال في الزنقة بفوارق عمرية تتراوح بين تسعة أشهر وعام ، وألحقت تسمية "العويلة" بالزنقة تمييزًا وتناغمًا مع واقع الحال ، لكن كبار السن يجزمون بغير هذا ؛ فالزنقة اكتسبت التسمية من عائلة "العويلة" التي كانت أول من بنى بيتًا تلته بيوت ، وتأسست الزنقة فسُميت "زنقة العويلة" تمشيًا مع تقليد سائد آنذاك .. الأمر الذي يثير الجدل أحيانًا لكنه ما يلبث حتى يفتأ ويخبو وتبقى زنقة العويلة زنقة لكل العويلة .

تسمية السوق القبلي كانت تحظى بنقاش لا يرقى إلى جدل إذ لم يكن هناك سوق آخر ، الأمر الذي يستدعي تسمية السوق بالسوق القبلي للتمييز ومنعا للخلط بين الأسواق ، وإن وجد دكانان أو ثلاثة دكاكين في العليا بعد الجامع ؛ فهي ليست سوقًا فرجَّح أن يكون السوق القبلي قد اكتسب التسمية من وقوعه قبلي الجامع بعد أن نفى كبار السن أن تكون التسمية جاءت مع الوافدين من مدن أخرى .

المقبرة كانت معلمًا شهيرًا في الحي ، وهي مقبرة قديمة مهجورة مسوَّرة ، يقوم على ربوة منها ضريح "سيدي

حسين" الذي يعتقد أهل الحي أنه ولي صالح فأضفوا اسمه على الحي ، وصار مزارًا للمغلوبين يتصدقون بالنقود والطعام عنده ويطلقون البخور فتدمع العيون وتغيب الرؤية ، يستجدون عونه وسط دعوات الشحاذين المتكدسين حول الضريح بأن يفك الله كرب كل مكروب ، وهي دعوات ذات خاصية في أيام الجمع والأعياد الدينية .

زاوية سيدي عبد القادر الجيلاني قاعة تقع في زقاق متفرع من شارع ترابي موازي لشارع الاستقلال ، وهي معلم غير ذي وميض إلا في عيد المولد النبوي ، وهي مأوى للمتصوفين وعابري السبيل والدراويش ، تقام فيها حلقات الذكر ليلاً ويشتد وطيس المدائح ودقات البنادير حتى ذروة الجذب فيقع منهارًا على الأرض نفر ، ويتشنج نفر ، ويعتقد المتصوفة منهم أنهم يعلون في اتصال مباشر بالعالم الفوقاني .

يبقى السوق القبلي هو محور الحي ، وتبقى شخوصه معالم كيانه الأبرز .

"العبردي" بقال ، ستيني جلف ، متين ذو بنية قوية ينهض بكل أعباء دكّانه دون معين ، معتدل القامة يرتكز

رأسه من غير رقبة بائنة بين كتفيه في تناسق وباقي البدن .. شارباه كثان فوق الشفة العليا يشيان بفحولة ، عيناه شرستان ، وإن دارى شراسته مداهنة أو ترقبًا أو سعيًا لمنفعة ، أذناه كبيرتان تتصنتان بكفاءة عالية .

عندما يداري شراسة العينين يكتسي الوجه منه سماحة مشوبة بخبث ، لا يكترث إن ناوشه مشاكس ، "لم يعد في العمر بقية للعراك" ، يقول "العبردي" ويصمت ، لكنه يكذب فهذا لا يحدث إلا إذا ألحَّت عليه توقعاته بظهور "صابرين" في السوق ، هو يميل إلى ملاطفة الجنس الناعم ومداعبته والتودد إليه ، والقول بكبر السن ليس إلا خِباء ، ثم إنه لا يجوز أن يلتقي "صابرين" متوترا أو عكر المزاج فلا يداعب ولا يباسم ولا ينتشي ، ولا يثير ضيق وحسد شيَّاب السوق شبه المقعدين :

- شائب وعائب !

يقولون ..

لا يعبأ "العبَّردي" ، يتمخطر راقصًا ساخرًا متحديًا كل الشيَّاب دون عراك ، ويقتصر الأمر على الملاسنة والخزرات الحادة ثم الإشاحة والانفضاض .

"العبَّردي" لا ييأس من إطلالة "صابرين" ، وإن طال الانتظار ، تلك الصبية اللؤلؤة المتلحفة برداء أبيض شفاف فلا يبان إلا الوجه المشرق بالطهارة والبكارة والحسن ، وجه نبيذي البشرة نضر ، عينان عسليتان واسعتان ، وشفتان نديتان برحيق الصبا ، استوتا حتى إذا ما انفرجتا بانت أسنان في بياض الثلج مصفوفة في تناسق وانتظام رباني بديع .

"صابرين" لا تتكحل ، ولا تتسوَّك ، ولا تتحنَّى ، ولا تلوذ بالأصباغ من أجل تورد الوجنتين ، ولا تتعطر فشذى الطهارة والعفة يعبق به أي مكان يكون لها فيه حضور ، وحضور "صابرين" يسود أي مكان تجيئه فلا يتجرأ جريء بنظرة وقحة أو كلمة بذيئة أو تحرش مأفون .. ملاك ، ربما ، بنت عائلة رمت بها تصاريف الزمان في غير المكان ، ربما ، غير أن لحاف "صابرين" الأبيض الشفاف كان يظهر ما تحته إذا ما شدته بيديها الاثنتين مغالبة ريحا هبت ، وقُفة مليئة بالمشتريات ، قفطان زرعي اللون بورود حمراء وصفراء صغيرة ، ضيق يمتشق جسدًا فتيًّا مليئًا متناسق الأطراف وصدر نافر لا تظهر تضاريسه إلا في خيال ذكور السوق .

لم تُتِحْ هذه الرؤية نظرة عابرة ، بل تحديقًا مغافلاً في حين ، وتلصصًا حذرًا في آخر يلاحقان خطوات "صابرين" حتى تختفي وتنبعث الوشوشات من فتيان :

- حلال على النصارى!!
- النصارى؟!
- نعم .. هي خادمة في بيت النصارى .. ترمي الرداء متى وصلت وتجوب الأنحاء وهم يتملّون الـ ...

بدا أن الفتى احتد وأن صوته علا فاشتد حتى أنطق الحاج جاد الله :

- اتقوا الله .. من أدراك أنها لا تحزم إزارًا في بيت النصارى؟! تتقول يا صايع لأن الصبية قليلة والي!! اغرب عن وجهي .

انفض جمع الفتيان من عند ناحية دكان الحاج جاد الله في صمت ، إذ كان صغار السن آنذاك يخشون كبار السن احترامًا وتوقيرًا ومخافة تداعيات غضب الأب والأم إن بلغ الأمر مداه .

النصارى هم ضباط الجيش البريطاني المصحوبين بعائلات ، اكتروا عمارات متلاصقة كانت فاخرة بمعايير

ذاك الزمان ، يؤوبون إليها من معسكراتهم المكتظة بالجنود بعد الدوام ؛ فكانوا مبعث إزعاج وترويع في ليالي الآحاد وعيد ميلاد المسيح ورأس السنة الميلادية للسكان الأصليين بما يحدثونه من صخب ، وما يطلقونه من موسيقى وأغانٍ تشق سكون الليل وتنغص على النفوس الوادعة وتحول دون سماع أذان العشاء ، وربما أذان الفجر ؛ فيثيرون حنق الناس واستياء المصلين حتى أن الشيخ سالم إمام الجامع تجرأ في خطبة صلاة ذات جمعة ودعا الله مجاهرًا أن يعجِّل برحيل الغرباء عن الحي واكتفى ، لكن "آمين" دوَّت بصوت واحد قوي مشحون بالغضب والأسى فارتعب الإمام الوديع وظل يقف على المنبر صامتًا خاشعًا إلى أن تعددت نحنحات المصلين فأنهى :

- أقيموا الصلاة .

ما كان يُقلق فتيان السوق القبلي كثيرا هو الخشية على "صابرين" وما يمكن أن تؤول إليه الفتاة وسط نصارى راقصين سكارى ؛ جاءوا عبر البحار للاستباحة ، لكن المراقبة الدقيقة الحثيثة المثابرة أكدت أن "صابرين" تغادر عصرا بُعيد قدوم الضباط الإنجليز من معسكراتهم الواقعة

في أطراف المدينة ، إلى سكناها في كوخ الصفيح بحداء إسطبل الخنازير ولا تغادره إلا في صبيحة اليوم التالي بعد أن تعول أمها الكفيفة وأخاها المعاق .

فتيان السوق القبلي لم ينقطعوا عن الاختباء وسط أشجار السرو المظلمة المواجهة لعمارات النصارى على بعد أمتار من الشرفات والنوافذ المبهرة الأضواء ، فيتاح للعيون التلصص والاستقصاء سعيًا إلى متعة الفُرجة والانتشاء إذ أُشيع في السوق القبلي أن النصارى متى سكروا يمارسون الجنس علنًا في الشرفات ، ويرمون بزجاجات الجُعَّة نصف الممتلئة بين أشجار السرو حتى أن إحداها أصابت فتى في رأسه فتلقف شيَّاب السوق الواقعة بامتعاض وتوجس :

- غلط! ماذا يفعل بين أشجار السرو في الليل؟

يقول قائل :

- يا نا علي .. قال لك ماذا يفعل؟!

يعلق "العبَّردي" متضاحكًا يتراقص ، وقد حشد كل الخبث في عينيه .

يحتد سيدي سويكر ، ويصرخ في حنق :

- لماذا لا يرحل هؤلاء الغرباء؟!

قول "سيدي سويكر" قطعي غير قابل للنقاش ؛ فالرجل صارم صلب ما رآه أيٌّ باسمًا أو ممازحًا ، إن حدث في حضوره هزل تحاشاه بنظرات حادَّة يصوِّبها مرفوع الرأس نحو السماء أما إذا كان في المقهى فيطوِّح بأوراق اللعب ويظاهر المتحلقين حول الطاولة وقد أدار كرسيه قاصرا خزراته على الحائط ، لكنه في أغلب الأحيان يغادر تاركًا وراء ظهره "قلة القيمة" للمتضاحكين ـ يقول : تمامًا كما النسوان .

"سيدي سويكر" يهابه الكبار والصغار ويخشون قامته السامقة وخزراته النافذة وطقطقات أسنانه في أوج غضبه ، إلا أنه لم يحدث أبدًا أن اعتدى باليد أو باللسان على أحد ، يعمد إلى تكوير قبضته ثم لا يلبث حتى يفرد يده ويمسح بالكف وجهه مغمض العينين متمتمًا :

- اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي!

يلوذ بالوضوء عادةً حتى في غير أوقات الصلاة ؛ فالماء يطفئ فورة الغضب ، والطهارة تخلي الروح والجسد من كل دنس ، والعياذ بالله .

من لم يره بعينيه لا يمكن أن يتصور مدى ضعف "سيدي سويكر" في حضرة الأطفال ، فهم لا يخشونه

ولا يهابونه ، يلتفون حوله ، يحتضنون ساقيه الفارعتين ، يثني هو الركبتين ، ينحني ، يمسِّد الرؤوس الصغيرة ، عيناه حانيتان .. تهملان ، يدس يده في جيبه ، يناول الأطفال السكاكر ، ككل مرة ، فما خلت جيوبه يومًا من سكاكر ، يتخاطفون الحلوى ، يتصايحون ، يتضاحكون ، ينصرفون عنه فرحين .. ترحل عيناه في أعقابهم متشوقتين للأبوة ، يخطو ملاحقًا صخب الصغار فيتوارون تباعًا ، يرفع عينيه إلى الأعلى وقد أجهش :

- اللهم لا اعتراض على مشيئتك .

"سيدي سويكر" في العقد الخامس ، وخالتي* "آمنة" زوجته على أعتاب الثلاثينات ، كلاهما في ذروة العطاء لكنهما لم ينجبا رغم كل ما تعاطياه من طبابة الأعشاب وما تداويا به من وصفات متداولة وما دسَّاه تحت الثياب والملاءات والمخدات من أحجبة وما أطلقاه في أرجاء البيت من بخور : (وشق ، جاوى ، فاسوخ ، بوكبير)** يقال أنه طارد للشياطين ، ولكل عمل سوء مكين وذلك عند

* عمي ، خالتي ، سيدي : صفات تسبق أسماء كبار السن توقيرًا .

** مواد صمغية بروائح متباينة .

كل وصال ، دون اللجوء لطبيب ؛ فالطبيب رجل ، ثم إنه غير متاح ، والعقم أهون من الوقوع بين يدي شوَّالة تنم فتفسد كل شيء .

التقط "سيدي سويكر" درَّاجته قابضًا على المِقود بيمناه دافعًا بها في اتجاه سيره ، فسياقة الدرَّاجة في شوارع "سيدي حسين" الترابية ذات النقر والحفر والغدران والأوحال لا تستقيم ثم أن الدرَّاجة صُرفت للتفتيش عن أية حفرة أو نقرة أو تشققات في الشوارع الرئيسة المرصوفة بالحصى المدكوك والقطران والإبلاغ عنها لدواعي الصيانة العاجلة التي غالبًا ما يتولاها "سيدي سويكر" وفرقته من المياومة .

استوقفته زغرودة ، تنصت ، زغرودة أخرى ، سمَّره الفضول ، الصباح ليس للأعراس ، والزغاريد لا تعلن عن الأتراح ، انفرج باب بيت عند عبور "سيدي سويكر" "زنقة العويلة" واندفعت "أخويدم الله" عجلى جذلى إلى وسط الزنقة ، وعندما فوجئت بوقوف "سيدي سويكر" مشدوهًا رفعت يمناها إلى فمها وأوسدت سبابتها الشفة العليا وأطلقت زغرودة مدوِّية جلجلت في السكون المطبق على "زنقة العويلة" ، وأعلنت بصوت فرح مرح :

- عبد الجليل .. عبد الجليل زاد عليه وليد .

- مبروك .

قال "سيدي سويكر" ، دفع درَّاجته ومشى صوب غايته ، "أخويدم الله" مضت تدق الأبواب الموارية ، تزغرد حينا وتخبر حينا ؛ معيارها في ذلك مدى حميمية العلاقة بين الجار وعائلة سيدي عبد الجليل وفق تقديرات تصيب ولا تخيب فتتفاوت ردود الأفعال بالتالي بين صمت ومبروك وزغرودة تُدس بعدها في يدها قطعة نقود ..

- بشارتك يا "أخويدم الله" .

تطلق زغرودة إضافية وتغادر .

"سيدي عبد الجليل" رجل شديد العبوس ، ينزوي في بيت لا يبرحه إلا إلى عمله في "التموين" أو إلى الجامع في يوم جمعة أو نهار عيد ، شديد الانضباط ، يتحاشى الاختلاط ، ينصت لكنه لا يتكلم وإن فعل فلا أكثر من كلمة أو كلمتين ، يتجنب الزيارات ، يمتنع عن الابتياع في السوق القبلي ، لا يفوته مأتم جار لكنه لا يؤم الأعراس ، يبدو مترفعًا لكن الرجل يهب للمساعدة في سخاء عند وقوع وفاة أو اشتداد مرض جار أو عوز عائلة دون عائل فأخرست مواقفه المتقولين بسوء إلا "العبَّردي" :

- شد خبزتك وأطلق عبستك!

يقول "العبَّردي" ويدير عينيه الشرستين في الأنحاء متفحصًا ردود الأفعال ، يتجاهلون قوله ، يشاكس :

- الخبز يشبع أما العبوس فلا .

لعل ثراء "سيدي عبد الجليل" هو العلة إذ يشاع أن مرتبه الشهري يزيد على العشرين جنيها بينما لا تتعدى يومية المياومة الربع جنيه الأمر الذي يوقد غضب الفقراء وحسد الجيران .

- ولكن عبد الجليل من عائلة ثرية .

يقول قائل :

- لماذا ثرية؟!

يتساءل فتى .

ما يثير اللغط بين الفتيان فزوجته فاطمة ذات القوام الرشيق والوجه القمري الصبوح والعينين الساحرتين اللتين تشعان أنوثة خجلى والشفتين القرمزيتين المزمومتين فلا تنفرجان إلا عن حلو الكلام همسًا في حياء يافعة .. ولود لا تنجب إلا الذكور ذات صيت طيب وأصل عريق .

وصف فاطمة على نحو ما قيل وهم وتوهَّم ، فما رأى فاطمة ذكر فتملى أو فتى فتجنى صورة فاطمة كما

تبدَّت نُسجت في الواقع من نتف عبارات سارية تتهامس بها صبايا "زنقة العويلة" ؛ فتتناهى إلى ذكور السوق القبلي ، يتلقفونها ، يحذفون ، يضيفون ، يحوِّرون ، يتخيَّلون حتى تكتمل الصورة زاهية بهية .

"فاطمة" رهينة وسط الحوش لا تتعداه إلى السقيفة ، ولا تفتح الباب الوحيد الموصد في "زنقة العويلة" إذا ما طرق حتى لو كان الطارق امرأة ، الزيارات غير مرغوبة واحتمال أن يكون رفقة القادمة صبي أمر وارد ، أما إذا اشتدت الطرقات وتوالت في غياب "سيدي عبد الجليل" نهض الابن البكر متلكئا تحثه أمي بصوت خافت وفتح الباب .

إن إنصاف "فاطمة" يقتضي أن نقر بأنها كانت جميلة وافرة الأنوثة دون خوض في تفاصيل دقيقة ، وأن ما يعتوره الناس مجرد تهويمات تحوم في مجال الخيال حتى أنها تبدو غير لائقة وغير مقبولة من كل الأطراف .

ينطفئ الألق في عيني "أخويدم الله" وتكبح إقدامها بشوشة على الآخر متى سئلت عن فاطمة فهي كتومة لا تُفشي سرًّا ولا تخبر أحدًا عن أحد شيئًا ، غير نمامَّة

أو لوَّامة ، امرأة سوية تجر بقدمين حافيتين جسدًا ينوء بخمسة عقود مواكبًا العقد السادس في حيوية وجلد .

- كم عمرك يا "أخويدم الله"؟ .

تضحك "أخويدم الله" كما لو كانت تنتحب وتستغرق مغمضة العينين في أتون الزمن حتى إذا ما طفر الدمع وبلل الخدين مسحته بكم ثوبها وهزت رأسها يمنة ويسرة تنفي أن تكون تعلم فيقع المنديل الكالح المعصوب حول الرأس ويبان شعر أشعت به أثر حناء : بيه .. بيه! تجيب "أخويدم الله" قولاً وتمضي ، وقد أشاحت بينما تلف يداها المنديل حول رأسها :

- ستر الله باقي!

تقول "أخويدم الله" ممازحة لا أحد .

يلتقط "إبراهيم" ما ندى من صوت عن أخويدم الله فيقول مخاطبًا "مصباح" :

- أسمعت ما تقوله "أخويدم الله"؟!

- سمعت .

يعتقد في السوق القبلي أن ملكًا ينطق "أخويدم الله" أحيانًا بالقول الفصل في موقف ما ، فسيتضيء بالقول من

أنصت إذا شاء وهو ما ذهبا إليه كلاهما وما فطنا إلى أن "أخويدم الله" كانت تمازح شعيرات شعثاء شبه محنَّاة لا تريد أن يراها أحد فتبدو في عينيه بشعة رغم ما تتمتع به من سماحة وجه ونقاء سريرة .

الموقف كان متأزمًا ، و"مصباح" كان متوترًا لا يقوى على الفكاك من حالة العشق التي تطبق على صدره ، تعتريه رغبة متأججة في البوح إذ عسى أن يخفف البوح من شدة المعاناة ، فليتكلم سواء ما نطقت به "أخويدم الله" عن ملك أو مجرد خطرفة عجوزة خرفة .

أطلق مصباح زفرة لو أصابت لأحرقت :

- نار يا خويا نار!!

شاء إبراهيم أن يخرج به من الحالة :

- "طيرين في عش الوفاء باتن سهارى كنهن" .

- نعم؟!

- ظهر مطرب شاب يغنِّي للفنانين ، الفنان محمد صدقي ، وسيد أبو مدين ، وعلي الشعالية .

- أين؟!

- في كباريه الألومبيا .

- لكن رواد الكباريهات من النصارى!
- هناك زبائن الزوايا المظلمة من الأثرياء والتابعين يسهرون حتى الفجر يسكرون .. وكل شيء ..
- كل شيء؟!
- كل شيء مباح .
- وينصتون لأغانينا؟!
- المخمورون لا يعون والنصارى لا يفهمون والضجة تُسكر أكثر .
- فكّنا من السياسة يا خويا .. خلّينا في الحب .

استاء إبراهيم : أي حب؟!

أجاب مصباح مسبلا جفنيه : حي .. حبيبتي ..

جعر إبراهيم ينهره :

- اخرص!

حالة الحب التي كانت تنتاب مصباح كانت متفشية في مجتمع الذكور آنذاك فلا تكاد ترى الإناث إلا إذا كُنَّ : أمًّا أو أختًا أو خالة أو عمة أو إحدى الجدتين وعلى استحياء ، الشوارع قاحلة لا تنبت ورودًا ولا زهورًا ، ولا تعبق أنفاسها بعطور ، ترابية يعلوها الغبار متى عصفت

رياح القبلي ، متيبسة تتشوق إلى فيض مطر يرطِّب الثرى حتى الارتواء ، تشوق الفتيان إلى غيث نافع يسقط كل رتاج يوصد أبواب البيوت دون البنات القابعات في البيوت منذ الطفولة ، رهينات جور الذكور ، وكأن الله شاء .

مر "النعَّاس" متأبطًا مذياعه ، فناكف الفتى صاحبه مناديًا "النعَّاس" :

- أسمِعه أغنية .. لعل وعسى!!

"النعَّاس" الذي ربما اشتق اسمه من نعاسه الموصول ؛ مكون أصيل في مجتمع السوق القبلي ، رجل غامض لا يتكلم ، يكتفي عند الحديث إليه بهمهمات وإصدار حشرجة تبدو كـ "آه" بمعنى "نعم" ذات الدلالة التساؤلية ، ورفع شحمة الأذن بإبهام يمناه للتنصت حتى إذا ما وشت ملامح وجهه بفهم مشوب بحذر انتصب واقفًا واحتوى مذياعه على صدره بكلتا يديه ومضى في رفض بائن أو غضب ظاهر أو خليط بين الاثنين لكل ما جرى .

"النعَّاس" رجل طويل القامة ربما كان جلفا في زمن فات حتى أصابه العوز بالهزال فلم ينل من العظم ، وإن أذاب الشحم وأتى على اللحم وما أبقى على غير الجلد ،

العين الخبيرة لا تخطئ كونه كان ابن عز ، وجهه نحاسي يميل إلى لون الرماد عيناه مختفيتان تحت نظارة شمسية سوداء مُلطَّخة عدستاها بدهن وغبار يحشر ذراعيها عند صدغي الرأس الكبير فيحدثان مجريين عميقين على الصدغين يبدوان كأثر ملحوظ إذا ما نزع النظارة لتجفيف عينيه الدامعتين دائمًا ، فيلح سؤال عمَّا إذا كان النعَّاس كفيفًا أم أن له من النظر بصيص؟! هو مطبق الشفتين المتيبستين حتى إذا ما تثاءب انفسحت عن أسنان صدئة صفراء متناثرة تنفر من بينها سن ذهب تُرجح أنَّه كان ابن عز .

ثياب النعَّاس رثة تمتاز بالقدم والوحدانية فلم يره أحد بغيرها ، ولم ير أحد غير معطفه وحذائه العسكريين اللذين ربما التقطهما من سوق "التركة" أو من قمامة عمارات النصارى ، وهما صالحان للارتداء في قيظ الصيف وصقيع الشتاء وحتى عندما رأفت به "أخويدم الله" وأتته ببذلة عربية من سروال وجلباب ، رفضهما "النعَّاس" في أنفة رغم قيظ ذاك اليوم من أيام الصيف فهو لا يقبل الصدقات من امرأة بل أنه لا يقبل الصدقات على الإطلاق .

عندما ظهر "النعَّاس" في السوق القبلي كان يحمل مذياعًا بيتيًّا متوسط الحجم يلف سلكه الكهربائي حول ذراعه ويحضنه بكلتا يديه إن كان قائمًا أو يسكنه في حجره إن كان جالسًا ، يلصقه بأذنه في أغلب الأحيان ، ينصت ، يهز رأسه ، ربما متابعًا نشرة إخبارية ، موعظة دينية ، يرقص كتفيه طربًا ربما انسجامًا وموسيقى أو أغنية عاطفية ، كل هذا دون وصل المذياع بالكهرباء حتى شاع احتمال وجود نضائد في المذياع ، الأمر النادر آنذاك ندرة وجود المذياع ، يداوم الجلوس على دكة ذات أخاديد عند ناصية السوق القبلي على بُعد خطوات من المقهى المصفوف الكراسي والطاولات الخشبية على الرصيف دون أن يتجرأ على سحب كرسي للقعود ، ربما تجنبًا لوجود نافر بين الفتيان ، ثم إن الجلوس يلزمه بطلب مشروب مما يقتضي بالضرورة وجود نقود ، ولا وجود للنقود عند "النعَّاس" فاعتبر الرجل هذا الشأن لزوم ما لا يلزم واكتفى من الكيف بالنفة* يحشو بها فتحتي أنفه فيعطس أو بفنجان قهوة ربما يجود به كريم .

* النفة : السعوط .

في عشيات السوق القبلي عند الأصيل يرش القهوجي عبد السلام الماء من سطل أمام المقهى ؛ كي يلطِّف الجو ويهمد الغبار ويصف الكراسي ذات القوائم الخشبية المشغولة مساندها ومقاعدها بسعف النخيل ، ويتوسط بينهما طاولات خشبية ذات قوائم ترتج ولا تنخلع فاقتضى واقع الحال كل الحذر ، يُرجع القهوجي عبد السلام ما آلت إليه الطاولات والكراسي إلى سوء استخدام الفتيان لها وليس للقِدم :

- كراسي وطاولات الشُيَّاب داخل المقهى متينة لا ترتج ولا تنخلع!

تعارف رواد المقهى على أن يكون موقع الشُيَّاب في المقهى الجواني ؛ حيث يلعبون الورق في هدوء لا يلبث أن يعلوه الحماس والصراخ والضجيج في ختام اللعب ، أما موطن الفتيان ففي المقهى البرَّاني ، يتوافدون قبيل المغرب بعد قيلولة ، والمقهى خالٍ من الشُيَّاب الذين يجيئون بعد صلاة المغرب .

- .. وصلاة العشاء؟

- صلاة العشاء جائزة حتى قبيل آذان الفجر .

- ولكن الليلة ليلة المولد النبوي .

ليلة المولد النبوي يمتنع الشُّبَّاب عن لعب الورق ، يلتقون في الجامع عند آذان المغرب ، بعد الصلاة لا يغادرون ، يجلسون طُهرًا خاشعين ، يتملُّون الآيات المرتلة بصوت رخيم يجوِّده إمام الجامع يرفعون أكفهم عندما يعلو صوت الإمام بالدعاء ، فلكل كربه ، يتوجهون إلى الله الواحد الأحد ، يبتغون مرضاته وغفرانه ، سائلينه جل جلاله أن يفك الكرب وييسر الرزق الحلال ويجيرهم من شر كل ظالم ، وعندما يختتم الإمام الدعاء تدوي كل الحناجر بـ "آمين" وكأنما رفع الغطاء عن قدور كاتمة فيفلت الغليان الدعوات كقذائف صوت تنطلق من بيت الله إلى رحابه فيخف الاحتقان ، وتسري الطمأنينة في الأبدان ، وتغشى النفوس السكينة ، وتهدأ الأنفاس ، ويركن المصلون إلى الاسترخاء .

بعد صلاة العشاء تهيأوا ينصرفون ومن صلَّى من الفتيان إلى زاوية "سيدي عبد القادر الجيلاني" ؛ لحضور حفل ختام القرآن الكريم حيث تُضاء المصابيح والقناديل ، وتُعلَّق الزينات وتكتظ أسطح الطاولات بالحلويات متعددة الأشكال زاهية الألوان ، والشربات معقودة السكر حلوة

المذاق ، وتنتظم في قاعة الزاوية حلقات الشيوخ والرجال والفتيان يجذبون ويصدحون بالمدائح والأذكار على دقات البنادير والدفوف بينما تتناهى من بعيد وقريب أصوات الأطفال :

- هذا قنديل وقنديل .. يضوي في ظلمات الليل .

قناديل ورقية متشابهة الألوان والأشكال ذات قاعدة من الورق المقوَّى تتوسطها حاملة من الزنك تحشر فيها الشمعة وتضاء تُحمَل من سلك معدني على شكل حدوة يثبت طرفاه أعلى القنديل .

يتجوَّل الأطفال فرحين في شوارع الحي أرهاطًا وجماعات ثم يلتقون أمام الزاوية فيشترون الحلوي والشربات ولكل مقتدر نصيب .

"نصيب" طفلٌ في العاشرة جاء يمتطي الفرح ليلة عيد حاملاً قنديله الورقي ، يصدح بصوت طفولي رقيق وسط رفاقه :

- يضوي في ظلمات الليل!

الوجهة كانت الزاوية ، والمسار كان بين عمارات النصارى ومحيط أشجار السرو إلى السوق القبلي حيث انتشر

بضعة فتيان على كراسي المقهى يتسامرون ويتابعون بعيون مبتهجة زرافات البراءة تعبر إلى الزاوية ؛ فبدا المشهد وكأنه استعراض للنور في وسط الظلام .

صرخة ندَّت عن طفل ، تبعتها صرخات وضجيج وأطفال يهرعون إلى السوق القبلي ، وقد أحرق التدافع قناديلهم ولجم الرعب أصواتهم ؛ انتفض الفتيان :

- ماذا يحدث؟!

الأطفال لا يجيبون ، يرتعشون ، يرتعدون ، هلعون تستجير عيونهم الدامعة بالفتيان ، يشيرون إلى عمارات النصارى ، جرى الفتيان إلى حيث أشار الأطفال ، وجدوا "نصيب" مرميًّا على وجهه ينزف ، قلَّبوا جسده الهزيل فتمزق ثوبه الرث وبانت خدوش وجروح في الوجه والصدر وما تحت السرة ، جرح واحد كان غائرا في الرقبة يتزف دمًا في لون الورد والطفل غائب عن الوعي ، حملوه وانطلقوا به جريًا إلى المستوصف ، سرى الخبر عند الجامع وعند الزاوية وفي شوارع وأزقة الحي فتنادى الناس وتدفقت جماعات إلى حيث الواقعة .

- ضابط إنجليزي كان يُبوِّلْ ويريِّض كلبه طليقًا عند أشجار السرو ، الأطفال استفزّوا الكلب بأضواء

القناديل والغناء ، فأصابه شيء من غضب ــ أي الكلب ـ وكان نصيب "نصيب" أن يوقعه الكلب ويجثم فوقه ويعمل في جسده الصغير بمخالبه وأنيابه حتى أدماه وغيَّبه ، نادى صاحب الكلب كلبه واقتاده عائدا إلى شقته .

قال رجل وأضاف :

- هذا كل ما جرى .

حوقل مهادنا .... و : ـ عيال شياطين!

لكن "سيدي سويكر" لم يهادن ، كان أول من التقط حجرًا وقذف به باب شرفة الضابط الإنجليزي فانهالت الحجارة من كل الأيادي على نوافذ وشرفات عمارات النصارى ، وتوالت ولولات العجائز مجلببات وغير مجلببات في وسط الشارع ، وقد خرجن عن طوع الرجال في تمرد ملحوظ ، وعلا نحيب الأطفال يلوذون بالجدات في فزع ، وبدت دمعتان من وراء عدستي النظارة في عيني النعاس تذرفان العجز عن الفعل والاستكانة إلى الضعف .

"القهوجي عبد السلام" هرع يرص الكراسي والطاولات في المقهى ويطفئ نار الوجاق والأنوار ويغلق باب المقهى برتاج يؤمِّنه بقفل ويمضي حثيثًا كي يلزم بيته .

عندما حذَّر رجل :

- الشاويش "بلح" .. الشاويش "بلح" .

نفر من الناس آبوا إلى البيوت ومنهم من انتظر ، آخرون توجهوا إلى كوخ الطفل "نصيب" على أعتاب السبخة ، كان الفتيان أعادوا الطفل إلى كوخه ؛ فالمستوصف مغلق ليلاً والمستشفى بعيد ، لكن الطفل استعاد وعيه ، والنزيف توقَّف دون طبيب ، أما الغائر من الخدوش والجروح فظلَّ يرشح دمًا ، و"نصيب" يصرخ عاليًا في نوبات متلاحقة فلا يسكته هنيهة إلا تقطع أنفاسه ، ربما هو الفزع ، قد يكون الألم ، أما ما كان يوجع أسرته الصغيرة فبلغ حد نحيب الأم وبكاء أخته حليمة ونهنهة أبيه مكفكفًا ما هملت به عيناه وسط مواساة الجيران وسخط كل الحاضرين .

اقتاد الشاويش "بلح" أبا "نصيب" إلى مركز الشرطة ، استهجن الحضور الفعل ، لحقوا بـ "سيدى عبد المجيد" ، تجمعوا أمام المركز توالى حضور الرجال والفتيان ، الشعور بالظلم كان قويًا يؤجج طاقة فاعلة في ذوات الناس ، حاول الشاويش "بلح" أن يلوح بالهراوة إلا أنه أخفاها عندما رأى المختار قادمًا ، بادره :

- جاءتني إشارة .. أنا عبد مأمور!

اندسا داخل مكتب الشاويش "بلح" ، أوصد باب المكتب ثم فُتح بعد قليل ، وخرج المختار مُتهلِّلاً يجر أبا "نصيب" من يده ، وكأنه يؤنِّبه على فعال ابنه . سيدي عبد المجيد متعثِّرًا ناكس الرأس مثقلاً بالهوان يهمهم بكلمات غير واضحة ، ربما كانت تقول بالشكر والعرفان شاءها خافتة خشية غضب الناس المتضامنين معه .. تنحنح المختار ، وغمز بعينه الضريرة ، كأنما شاء أن يخبر عن أمر دون قول ثم قال :

- ألغيت الإشارة .. الشاويش "بلح" عبد مأمور .. هيَّا إلى بيوتكم .

أفلت سيدي "عبد المجيد" يده من يد المختار ؛ فكاد يوقعه إذ كان يعاني من عرج ، اتكأ المختار على عكازه وقد نال هيبته شيء من التعثر ، سيدي "عبد المجيد" اعتذر :

- سامحني يا مختار!

علا صوت يفض الموقف :

- نصيب .. والله نصيب .

لم يجب المختار ، بل غضب عندما لمح في عيون الفتيان استحسان تعثره ، وصرخ كأنه يتوعد :

- امشوا .. امشوا من هنا .

رد صوت غاضب :

- انطمر! .

بان الشاويش "بلح" ، وقد أحكم قبضته على الهراوة وتمنطق بمسدسه في ظهور بائن ، تفرق الناس ، مضى كلٌ إلى شأنه ، فالزاوية مطفأة المصابيح ، قناديل الأطفال الورقية احترقت ، ديست ، تقطَّعت مزق ورق ذاب في الوحل أو كاد ، باب الزاوية مغلق .. خفير عجوز يتمدد على العتبة دون فراش أو غطاء ويغط في نوم عميق ، ظلام الليل يشتد اسوداده ؛ فتنعدم الرؤية ، ويتلمس الناس الطريق كالعميان فلا إبصار من غير نور .

الطريق إلى كوخ "سيدي عبد المجيد" كان أكثر وعورة إذ يقع في طرف الحي عند السبخة ، حيث تُكوم القمامة عشوائيًّا ؛ فتجتذب الكلاب الجائعة الشرسة والذباب والحشرات والفئران ، وتنفث متى هبت رياح الروائح الكريهة في الأجواء ، هي وقد أعتم الليل وبدأ الإظلام ،

كـأداء ، الطريـق مـسارب تعوقهـا حفـر وأكـوام حجـارة وبواقي بناء تلبد بها قطط كنمور صغيرة تبان متى عكست عيونها شعاع قمر أو أضواء عربة عابرة ، تختبئ هربًا من نباح كلب في الأرجاء .

وطأة الحب متى اشتدت تكتسح العوائق وتجبر الفتى "مصباح" المتضوِّر عشقًا على المجازفة واجتياز كل الأشياء إلى الكوخ علَّه يحظى بصوت "حليمة" يجيئه عبر شقوق أطباق الصفيح مواسية شقيقها "نصيب" مداعبة إياه ، لعلَّه يحظى بضحكة .. ولِمَ لا؟!

ليته يتجرأ على ولوج باب الكوخ إلى حيث "حليمة" ، وَجَفَ .. لا تبرير لعيادة "نصيب" حتى لو كان الوقت نهارًا وتحت غطاء أي ادعاء؟ .. دنا من الكوخ حتى صار على بعد خطوة ، سمع صوت "سيدي سويكر" يطيِّب خاطر الأب ويداعب الطفل :

- شدة وتزول .. جروح وتندمل .. يبان الرجال حين الشدة .. تجلَّد ..

صمت ثم :

- ادهن الجروح بالدواء .. ضع قطعة من القطن على ثقب النزف ولف الجرح بشريط الشاش .

صمت "سيدي سويكر" برهة ، استطرد :

- دع عنك .. سأداويه أنا .. و ..

قاطعة صوت "أخويدم الله" حانيًا :

- دهنته بزيت الزيتون الفاتر .. أوسدته تحت المخدة مصحفًا .. ألا يكفي هذا يا "سيدي سويكر"؟

أجاب "سيدي سويكر" بصوت مجامل لا يخلو من ضيق :

- هذا مبارك يا "أخويدم الله" .. لكن .. لا بد من الدواء .

أضافت "أخويدم الله" :

- أخشى أن يصحو ويبدأ العياط!

لم يأبه "سيدي سويكر" وبدا أنه شرع في مداواة الطفل "نصيب" إذ نهنه الطفل وبكى ، والرجل يلاطفه ويداعبه :

- لا يا "نصيب" عيب .. الرجال لا يبكون .. جئتك بحلوى .. أُنظر .. جئتك بقنديل جديد .. أُنظر .. خلاص ..

سكت الطفل ، ربما كان يتملى القنديل أو يلوك الحلوى ، ثم همهمة ، خشخشة ، نحنحة ، ويعلو صوت "سيدي سويكر" متثائبًا :

- تصبحون على خير .

تجيب "أخويدم الله" :

- وأنت من أهله .. سأخفت ضوء الفنار ، وسأقعد بجواره حتى الصباح .

وتضيف بصوت عال :

- لا تقلقوا .. ناموا .. كفاكم ما أنتم فيه ..

صوت رقيق عذب جاءه كما هبّة نسيم نديَّة ، فانتشى "مصباح" وأخفق بذراعيه شروعًا في الطيران كنورس .

- إن شاء الله ما تغيب يا عمي "سويكر" .

توارى "مصباح" متلحفًا بالظلام مبتعدًا في خفة وحذر عن الكوخ حتى لا يراه "سيدي أسويكر" فالرجل بعيني صقر ، وقف قبالة السبخة بعد أن صيَّرها المطر بحيرة ملح ، اقتعد الأرض ، اختفى وراء عيدان الديس ، امتطى الخيال يجوب أحداث حب دافق ، إغفاءة قصيرة غيَّبته ، علا أذان الفجر يوقظه ، تململ ، تلكأ ، أغفى ، لحاف الظلام يتلاشى ، بزغت الشمس ، أشفقت على الجسد الشاب المسجى على ضفاف بحيرة الملح وقد هدَّه العشق وأضناه السهر فغطته برداء من ذهب يدفئه .

تقلَّب .. أفاق ، جزع ، وقف ، مسح المكان بعينين قلقتين ، خشى أن يكون "سيدي سويكر" قد رآه .

ليس سوى النوارس تطير وتحط ، تمارس الحب ، تلهو ، مشهد بديع راقه ، تمنَّى أن يتحول إلى نورس ، مخلوق حر طليق يجوب العالم دون عوائق ، أيامه قصيرة لكنها ممتعة ، ما جدوى أيام العمر الشقية وإن طالت؟ .. أيام قليلة .. رغبات محدودة تُلَّبى بالوفرة والتراضي ، دعا الله أن يجنِّحه ، يصيِّره نورسًا ، يعلو فوق بحيرة الملح ثم يحط ، يرحل مع النوارس في حين إلى دنيا الله الرحبة .

- لكن ماذا عن "حليمة"؟

صهل حصان جامح ، استدار ، عربات "الكارّو" تتلاحق حثيثًا على الطريق الموازي إلى سوق الخضار في الفندق البلدي .. استاء ، تعكر صفوه ، لا توافق ولا تناغم ولا حتى تقارب بين حلو الخيال ومر الواقع .

حكَّ فروة رأسه ، تذكَّر عصيدة أمه في يوم المولد النبوي مغمورة بالسمن والرُّب ، ساخنة تدفئ جوفه تسد رمقه بعد ليلة بلا عشاء فهرع إلى البيت .

البيت نائم ، ساكن ، شخير أمه متقطعًا يشق جدار الصمت ، عدا ذلك ، أخوته مرصوفون في حجرة أخرى

يتقلبون ويتداخلون ثم يفضون اشتباك الأذرع والسيقان ؛ فهم على وشك الاستيقاظ ، الأب غير موجود إذ بدا أنه غادر باكرًا ، فتح باب "المربوعة"* وعبث بسريره فأزاح البطانية وأسقط المخدة على الأرض وكوم المنامة على الفراش وأضاء الفنار حتى يدل على أنه نسى إطفاءه سهوًا بعد الاستيقاظ ، بدا المشهد وكأنه بات ليلته في فراشه ، بدت على ملامحه ابتسامة اطمئنان ، خطا إلى حيث أمه ، ناداها من وراء الباب الموارب :

- أمي .. أمي ..

توقف الشخير ، ثم أعقبه سعال خفيف ، تلاه صوت أمه :

- إيوه .. إيوه ..

- كل عام وأنت بخير يا أمي .

- وأنت طيب .. صحوت باكرًا على غير عادتك!

- اليوم ميلود .. العصيدة يا أمي .

أجابته ضاحكة ، تسعل :

- همَّك بطنك دائمًا .. أصلِّي أولا ..

---

* المربوعة : حجرة عند مدخل البيت بباب على السقيفة .

تلذذ بابتلاع لقيمات العصيدة الساخنة ولحس أصابع وكف يمناه ، أوهنه امتلاء بطنه ، وأحس بخدر الشبع والنعاس ، استدرج أمه للحديث عن "حليمة" :

- مسكين العيل "نصيب"!

البرقية وصلت الأم الخبيرة المجربة ، أدركت على الفور ما يريد الحديث فيه ، حدَّقت في عينيه ؛ فهرب بالعينين مطاطئًا ، وكأنه يشاطر "نصيب" المصاب ، كتمت ابتسامة ، لجمت ضحكة ، يا لهذا الطفل الكبير .. كم يروقه الحديث عن "حليمة" ، نبرت في دهاء العجائز :

- والله ما مسكينة غير حليمة!

رفع رأسه مستجلبًا الحياء في عناء :

- حليمة؟!

- نعم .. يا لها من بنت رائعة!

استطردت ككل مرة ، ما دام الحديث عن "حليمة" يمتعه :

- زين على زين .. سبحان من صور .. ربعة ، ليست طويلة ولا قصيرة ، رشيقة ، لا هي نحيفة ولا هي سمينة ، متوردة الوجنتين متى تنمَّل

الوجه بحياء .. تخفي العينين الزرقاوين تحت حجاب الجفنين .. تهمس إن تكلمت ، تنصت صامتة للآخرين .

تمادت الأم ، أدركت ذلك ، خُدِش حاجز الحياء ، صمتت هنيهة ، تداركت الموقف ، أضافت :

- حليمة ليست بائرة كما كثير من البنات .. لكن .. آه ..

خشي مصباح .. (لكن) هذه :

- لكن؟!

- نعم .. لعن الله الفقر .. تصوَّر أميرة في قفطان بال تكابد العوز في كوخ من الصفيح عند السبخة!

ساد صمت شاءته الأم كي توعز لفتاها بأنه ليس فارس "حليمة" ، "حليمة" تتطلع بالتأكيد إلى فارس ثري قادر ينهض بها إلى حياة رغدة تليق بالأميرات ، وتطال أهلها أيضا .

- اسمع ..

قالت الأم :

"حليمة بنت أصل .. ألحَّت رفيقاتها عليها في عرس أن ترقص فرفضت رفضًا شديدًا حتى لـيَّن إصرار البنات

والصبايا رفض "حليمة" ، استشارت أمها بعينيها فأذنت لها ، جلجلت الزغاريد في العرس ، اشتد إيقاع "الدربوكة" والتصفيق ، عمَّ المكان دخان "الفاسوخ" حتى يفسخ شر عين قد تصيب الصبية ، رقصت "حليمة" رقصًا رائعًا لم ترقصه فتاة من قبل ، وقد تحلَّقت من حولها الفتيات والصبايا يغنين :

- ربي يخلي بنت "أمجوده" العين زرقاء والجمة سوداء .

فجأة اخترقت الحلقة كِنَّة شاءت أن تناكف حماتها ؛ فقطعت على الفتيات اندماجهن في الطرب ، وعلا صوتها :

- احرق عين أمك يا الوليد شمعة وصندوقين وقيد .

توقفت "حليمة" عن الرقص فورًا ، وانفضت حلقة البنات والصبايا ، هرعت إلى حيث الأم تردد في غضب :

- هذا كلام عيب .. والله عيب .

"حليمة" هي الكنة التي تتمناها كل أم ولكن .

ولكن حضر الأب ونهض مصباح كي يقبل يده :

- كل عام وأنت طيب .

دفعه الأب في غلظة وصرخ في وجهه :

- أين بتَّ البارحة؟!

- في المربوعة .

- أنت كاذب!

هرب "مصباح" إلى السقيفة ، ثمَّ إلى الشارع صوب السوق القبلي يشيِّعه صوت الأب مزمجرًا مؤكِّدًا أنه بات خارج البيت وتمتمات الأم التي تحاول أن تمتص هوج الأب :

- اليوم ميلود صلِّ على النبي .

كان "النعَّاس" يقتعد دكة دكان "سيدي جاد الله" عند ناصية السوق القبلي متكئا على الحائط ، وقد مدَّ ساقيه واحتضن المذياع بينما كانت "أخويدم الله" تجثو عند قدميه ترغمه على ابتلاع لقيمات عصيدة ساخنة ، تجفف لعابه وما فاض به فمه وتجرعه الماء كلما اقتضى الابتلاع :

- العصيدة من "حليمة" .. هيَّا كُل .

فوجئ "مصباح" بمشهد العجوزين ، خليط من مشاعر الدهشة والفرح والألم .. داهمه قول "عصيدة حليمة" ، جمرة ألهبت جوفه وهزته حتى كاد يتعثر ، دنا منهما :

- صباح الخير .. كل عام وأنتم بخير .

"النعَّاس" لم يرد ؛ فقد غالبه نعاسه ، "أخويدم الله" ابتسمت :

- وأنت طيب .

الحاج "جاد الله" يتسلَّل ببطء حتى دنا فما انتبه إليه أحد إلى أن وقف على رؤوسهم ، دموع "أخويدم الله" قريبة إذ سرعان ما بكت ونهضت خشية استيائه ، مسحت ما رشح من دمع :

- المسكين بات هنا البارحة ، لم يعد قادرا على المشي ، ألم شديد في "بزغولة"* ساقه ، وخزات في الصدر .

"مصباح" الذي كان يجانب الحاج "جاد الله" ، نطق مداهنًا :

- "أخويدم الله" جاءته بالعصيدة من ..

وغُصَّ بـ "حليمة" ؛ فعاجلته "أخويدم الله" :

- من حوش "سيدي عبد المجيد" .

---

* البزغولة : ربلة الساق .

ما قدرا على قراءة وجه "سيدي جاد الله" ، فوجه الرجل بلا ملامح ، أهتمٌ بعينين صغيرتين أعشيين لا تنبئان بشيء ، لكن السائد في السوق القبلي هو أن "سيدي جاد الله" رجل طيب القلب ، حادُّ المزاج ، نقي لا تشوبه ضغينة ، صامت لا ينطق إذ ينصت طويلاً لمحدثه ، عُزيَ الأمر إلى حكمة الرجل ، وأرجعه خبثاء إلى بطء الفهم .

عملت يداه في قفل باب دكانه يفتحه ؛ فاستعصى .. حاول "مصباح" أن يعينه فمنعه ، الحاج "جاد الله" يُبَكِّر قبل كل أصحاب الدكاكين ويعالج القفل مرارًا حتى ينفتح ويقرر شراء قفل جديد ولا يفعل ، فالقفل يعوق سطو أي سارق . يفتح الحاج "جاد الله" القفل ويدفع باب الدكان ويباشر يومه .

دكان "سيدي جاد الله" حجرة مقتطعة من البيت الواقع خلف الدكان ، يمتاز بكنيف صغير يُهَوَّى من كوة مفتوحة على وسط حوش البيت ، وبنافذة تطل على السوق حيث الدكة ، في ركن من الدكان سرير مهيأ لقيلولة "سيدي جاد الله" متى شاء ، نادى :

- مصباح .. يا مصباح .

- نعم يا سيدي؟!

- ارفع "النعَّاس" ، ومدده على السرير .

تعاونا ، "مصباح" ، و"أخويدم الله" ، أمشياه مطبقًا على المذياع حتى كاد يلتف سلكه على ساقه فيوقعه ، أوسداه المخدة بعد أن استلقى ، غطياه ، استل "مصباح" المذياع يجنِّبه السرير ، أعاده إليه بعد أن اشتط ، احتضن المذياع وعاجله النوم فغفى .

- بارك الله فيك يا "سيدي جاد الله" .

قالت "أخويدم الله" متوددة ، لم يرد الحاج "جاد الله" .. خرج كلاهما . "أخويدم الله" إلى كوخ "سيدي عبد المجيد" ، و"مصباح" إلى بيته .

- هذا الشائب العنيد .. يُبكِّر قبلي كل يوم!

قال "العبَّردي" ، بينما كان يكنس عتبة باب دكانه ، وقد أضحى الصبح ، وكست الشمس كل الأنحاء .. أضاف محدثًا لا أحد :

- الشُّيَّاب مثل "جاد الله" يصحون باكرًا ، أما الشباب فيصحون متأخرين .

مسَّد شاربيه مزهوًا ، خبط صدره بيده تدليلاً على حيويته وفتوته ، كحَّ فكتم كحته حتى لا يشمت به "سيدي

جاد الله" ، تلصص ، لاحت من بُعد "صابرين" قادمة إلى السوق القبلي : إن شاء الله خير؟! .. قال "العبَّردي" فما اعتادت "صابرين" أن تجيء باكرًا .

- أين الخير؟!

أجابته "صابرين" بعد أن كشفت عن وجهها ؛ فبهره الوجه بألقه حتى كاد أن يغشى على بصره قالت :

- لم أنم البارحة .

- لماذا؟

- "نصيب"!

غابت "صابرين" الأنثى عن عيني "العبَّردي" ، وتلألأت "صابرين" المواطنة ، فنال وهج انتماء الصبية منه ، أضافت :

- فكرت كثيرا ليلة البارحة . وجدتني غير قادرة على العمل عند النصارى خادمة بعد ما حدث ، خجلى من البقاء في خدمتهم ، أخشى كراهية الناس ، سأجوع من أجل كرامتي وكرامة "نصيب" وكرامة كل الناس ، سأعتمد حب الناس زادًا ومدَّخرًا .. جئت أخبرك لأنك رجل صريح في مقام والدي .

وخزته (في مقام والدي) إلا أنه تجاوزها إكبارًا لصابرين :

- ولكنك يا صابرين تعولين أمًا كفيفة وأخا معاقًا!!

- الرزق على الله .

- أي نعم .. لكن ما البديل؟

- يفرج الله .

انفعالات "صابرين" أطاحت الرداء من على رأسها إلى ما تحت الكتفين ، ما انتبهت له "صابرين" ولا تيقظت إلى أنها كانت على بُعد نصف خطوة من "العبَّردي" في موقف حميمي تتوجع على سجيتها بكل عفوية ونقاء .

- عائدة إلى الكوخ .

أخبرت "صابرين" .

- آه .. آه ..

تأوه "العبَّردي" كما أسد يزأر ، تلحفت "صابرين" وانسلت تغادر ، فوجئت بـ "مصباح" يسد المخرج ؛ فكادت تحتك به ، مشدوهًا أفسح لها المجال ، ما راق للعبَّردي قدوم "مصباح" في التو ، لكن الفتى ما ولج البيت ولا تمكَّن من غفوة ، إذ داهمه صوت أبيه عند الباب يعارك أمه في شأن غير شأنه فآثر الفرار كرَّةً أخرى .

داعب "مصباح" "العبَّردي" :

- أعطاك الله .

- ماذا أعطاني؟!

سأل "العبَّردي" في انفعال يداريه :

- كل هذا الحب .

- اسمع يا ولد .. كلنا يحب "صابرين" .. ولكل غاياته ومراميه ، لكن أسمى آيات الحب هو ذلك الخالص لوجه "صابرين" ، الحب النقي الوضَّاء ، أجاهر به ولا أخفيه .. أنا أحبُّ ابنتي "صابرين" ، و"صابرين" تحب من يحبها .. أنت أيضا يا "مصباح" تحب "صابرين" .. و"صابرين" قطعًا تحبك ..

ثم ممازحًا ، وقد تغيَّرت وتيرة القول :

- الحبُّ يا شابْ .. هل جربت الحُبَّ!؟!

- أيوه .. أ .. أ ..

أجاب "مصباح" فرحًا ، هذه ثغرة يمكن أن ينفذ منها إلى البوح بحب "حليمة" ، التفت كي يؤمن المكان من أي قادم ، لمح رجلاً ينتصب عند الناصية يرصد حركته ، ثم

يشير بيده أن تعالى ، انصاع "مصباح" ، وارتاب "العبَّردي" ، خشي الرجل ذا العينين الحادتين يديرهما متحفزًا في كل الأنحاء ، لفته أن أذنيه المشرعتين لا تقلان كبرًا فتحسس أذنيه .. وشوشة كان يستنطق "مصباح" بينما كان الفتى يرتجف ، توارى مشدودا إلى الأرض بخطوات صلبة ، فيما عاد "مصباح" ، وقد احمرَّ وجهه والتمعت عيناه برشح ، وسال لُعابٌ من فمه فبلل ذقنه .

أجاب "مصباح" "العبَّردي" على سؤال لم يطرحه :

- بوليس سري!

- أه ..ها ..

نبر "العبَّردي" ثم رفع العارضة الخشبية وجذب "مصباح" إلى داخل الدكان :

- ماذا يريد؟!

- معلومات عن شباب الناصية .

- كيف أجبته يا فالح؟

- لست بصاصًا ولا شأن لي بهم .

- وماذا أيضا؟

- سألني عن "صابرين" .

امتقع وجه "العبَّردي" ، فبدا كالمريب يقول خذوني ، خشي أن يكون "البوليس السري" لمح "صابرين" في دكانه .

أضاف "مصباح" :

- حسمتُ إلحاحه بالقول إنني لا أقف عند الناصية ولا أعرف شيئا عن "صابرين" .

أجابني : نعرف .. نعرف .. أما عنك ..

وسكت في ممازحة شاءها أن تؤجج فضول "العبَّردي" :

- آه .. ها .. ها ..

- أما عنك .. فقال إنك شائب فاجر .

- التيس!!

عندما استدار "مصباح" يتبين أصوات خبط ودق لمح "عبد السلام القهوجي" ينقل الكراسي والطاولات ويرصها أمام المقهى ، هبَّ جريًا لمساعدته ، يرفع عنه كرسيًّا ويساوي طاولة ويلاحظ :

- اليوم بدري يا سيدي عبد السلام!

أجابه باسمًا :

- يا فتاح الأبواب .. يا عزيز يا وهَّاب .

عينا "العبَّردي" تتابعان عن بُعد ، كان يمشِّط شاربيه الكثَّين بمشط صغير ، هواء الصباح الندي أزاح عن صدره ضيقًا شديدًا ، ليس هناك ما يدعو إلى القلق ؛ فالفجور شائع ومباح ولا ضرر ولا ضرار .

مسَّد شاربيه بأصابع ندية بماء الزهر ، ووشوش في حذر :

- توا يبان لك .

بدأ الفتيان الحضور إلى الناصية يتبادلون التهاني بعيد المولد النبوي فيما يصدح مذياع المقهى :

- "يا ليبيا .. يا بلاد الزهر والحِنَّة .. اجعل ترابك من تراب الجنة" .

راق للفتيان أن يرددوا مع المذياع : "يا ليبيا يا جنة" .

علا الضجيج ، تضايق "الحاج جاد الله" ، نهض وهِنًا يجر ثقله على ساقين واهيين ، حتى إذا ما وصل عتبة الدكان استند إلى الباب وخزر الفتيان بعينين اتسعتا رغم الغشاوة والصغر حتى كادتا أن تخرجا من محجريهما . كاد أن يطردهم وربما تمادى فألحق بهم السباب مدفوعًا بما تراكم في صدره من ضغينة ، فأحاديث الفتيان في السياسة

والحب وأحيانا معاقرة الخمور تصله تصنتا عبر نافذة دكانه المواربة ، لكن الفتيان عاجلوه بالتحية والتبريكات :

- كل عام وأنت طيب يا سيدي الحاج .. أنت الخير والبركة يا عمي الحاج .

تدفَّقوا يحيطونه ، يقبلون يده ، يقبِّلون رأسه ، يحتضنونه تودداً ، ارتبك ، ما عاد قادرًا على الفعل ، أسندوه حتى أجلسوه على كرسيه في وسط الدكان ، تراجعت فورة الغضب ، امتص الحب ما شاب مشاعر "الحاج جاد الله" من ضغينة ، هؤلاء الفتيان الطيبون أولادي .. أدعو لهم بالهداية . ثم حشرج منبها :

- "النعَّاس" راقد مريض .

أشار بعكازه إلى حيث السرير :

- الهدوء .. رجاءً .

فوجئ الفتيان بالحالة ، تدفقت الأسئلة ، زمَّ شفتيه معتصمًا بالصمت والعبوس ، لكنه كرر :

- الهدوء .. رجاءً .

انفضُّوا ، ذهبوا إلى المقهى ، علا صوت "عبد السلام القهوجي" :

- اليوم يوم العصيدة .. السحلب بكره .. اليوم قهوة وشاهي وبس .
- وطي صوت المذياع أو اغلقه .. "النعَّاس" يرقد مريضًا في دكان "الحاج جاد الله" ، أما الزهر والحنة فسنتغنى بهما في يوم لاحق .
- حاضر .

قال "عبد السلام" :

تُرى هل تجمعت عجائز زتقة العويلة في وسط حوش ، وقد تحلَّقن حول قصعة عصيدة يفطرن وبراد الشاي يغلي على الكانون؟!

أبهجه التساؤل ؛ فمشى "مصباح" جذلاً إلى "زنقة العويلة" دون أن يكترث حتى بمواجهة أبيه فقد اعتاد فورات الغضب التي لا تلبث حتى تهدأ وتتلاشى .

تناهى إليه من وسط الحوش أصوات العجائز ، وقد تداخلت ، إذ كُنَّ يتكلمن جميعا وينصتن في آن كالعادة ، أمُّه كانت تتصدر القعدة وتتابع غليان براد الشاي ، بينما جلست الجارات على الحصير في نصف دائرة ، وقد جنبن قصعة العصيدة .. تنحنح ؛ فصمتن ، نحا إليهن :

- كل عام وأنتن بخير .

تداخلت أصواتهن يجبن في مرح :

- وأنت طيب .. ربّي يحفظك ..

وجوه سمحة لا تخلو من تجاعيد أو غضون تزدان ملامحها بالطيبة والبساطة والعفوية ، وتنبئ عن مكابدة ومعاناة توغلت زمنًا في حيواتهن ؛ فأثمرت أمراضًا وهزالاً وإعياءً يقاومنه بإرادة مؤمنة صلبة مصرَّة على البقاء والحياة ؛ فيتدفقن حيوية وإقبالاً ومودة وصفاءً .

تناولت خالتي شُرَّافة قرص دواء وبلعته دون ماء ، تابعتها خالتي القطيطة بانتباه ثم توسلت :

- أعطني واحدة .

- هذا دواء .. ما مرضك؟

- كل مرض عندي منه!

علت ضحكات العجائز ، ليس من تضحكهن حتى تدمع العيون ، غير "القطيطة" عجوز ليست من سكان "زنقة العويلة" لكنها تجيء كل صباح تشارك العجائز الإفطار والأخبار والحكايا والضحك ، لا تجيب إن سُئلت ، لا تفصح عن شيء ، تصمت ثم لا تلبث حتى تغادر متحاشية أن يبان الفزع تعثرًا وتختفي .

أجمعت الجارات على أن ينادينها بـ "القطيطة" ، فهن لا يسمعن خطوها إذ تتسحب في سلاسة حتى تفاجئهن ، تبدو بوجه هِرَّة وعيني قطة ، غير مؤذية ، هشوشة بشوشة ، مقبلة ، بلغ بها الفقر حد الإملاق ، فجازت الشفقة ووجب الإحسان .

تثاءب "مصباح" فاستدار وخطا إلى فراشه كي ينام بعد كل ما لحق به من عناء ، أطبق الباب حتى يعترض الضحكات والأصوات التي تناهت إليه رغم الإطباق تدغدغ فيه مشاعر البنوة فيالتلك الأمهات الفضليات .

استغرق في نوم عميق حتى المساء .

المساء في السوق القبلي بُعيد المغرب إن صفت السماء واعتدل الطقس يمتاز غالبًا بالحيوية والحياة ، الفتيان لا يمتنعون عن التلاقي حتى إن حجبت السحب القمر وغيَّب الظلام رؤية دورية راجلة تشق وسط السوق القبلي ، عموما ، هم ينصاعون لأوامر "البوليس" يلاطفونه ، يسلكون طريق السلامة إلى بيوتهم متى تأخر الليل مغالبين الشعور الدافق بالانكسار والمذلة :

- وطئ عيونك واسمع الوردية .. لا نار توقد لا فتيلة حية .

يدندنون في أسى وينفضون .

ذات مساء شتوي قبيل المغرب تتابع قدوم الفتيان إلى الناصية في السوق القبلي ، تماما كما لو كانوا على موعد ، تتبين الغضب والتحفز في عيونهم دون حاجة إلى فراسة .

المزاج العام كان سيئا عكرته هموم المرض والفقر والجهل ، لكن الهم القومي طغى والإحساس بالضآلة والمهانة توغَّل والعجز عن الفعل كبَّل الحراك ، فبدا سكونًا وخنوعًا ومذلةً .

كان الفراغ السياسي سحيقًا ، وكان الوطن يموج بتيارات عقائدية جامحة : بعثية وشيوعية وإخوانية وقومية وناصرية وغيرها ، وكان لكل تيار دعاة متمرسون جاءوا كمدرسين ينشطون في المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعة ، وفي المراكز الثقافية . خبراء نشطون يؤسسون لمجتمع قادم في وطن بكر ، وكان الوطن غائبًا عن الساحة غير ذي عقيدة سياسية ، وكان الولاء للقبيلة والمنطقة والمنفعة الشخصية ، للجزء وليس الكل ، فالكل مشظٍ ومستباح .

كان الحاضر الأقوى هو "عبد الناصر" يداوي جراح الضآلة والمهانة والخنوع والمذلة بمواقف وطنية وقومية

صلبة ، تذكي مشاعر الغضب والثورة في صدور شباب متأهب ، يؤجج المشاعر القومية في جيل واعد يتوق إلى هوية عريقة تستلب منه جهارا .

- ارفع رأسك يا أخي فأنت عربي .

- ارفع رأسك فقد مضى عهد الاستعباد .

واقع الحال كان ينذر ، وغياب الدولة كان مشمولا بالنفاذ .

المشهد عند الناصية كان جديرًا بالانتباه ، "علي" و"عمر" و"مفتاح" و"محمد" تصدَّروا الحديث ، "مصباح" وقف مبهورا يُنصت ؛ فالمطروح لم يكن معتادًا ، لم يكن يقف عند الناصية ولم تكن السياسة شأنه ، تردد قبل أن ينسل ويختفي في دكان "العبَّردي" .

علا صوت "عُمر" فتراجع اللغط :

- يا شباب .. غدًا صباحًا .. أمام الجامعة .. مظاهرة سلمية .. كونوا في الموعد .

أبرق "عمر" ، ومرق فاختفى ، استرجع اللغط المشهد ، مؤيد ، معارض ، متردد ، قائل بتحويل مجرى نهر الأردن شأن أردني ، مرعوب يخشى سطوة القوة

المتحركة ، داع إلى حرية التعبير ، صمت امتطاه "مفتاح" في لغة خطابية :

- الوطن العربي وطن واحد ، جُزئ من الغرب إلى أوطان قزمية .. تحويل مجرى نهر الأردن شأن عربي .. عبد الناصر دعا إلى قمة عربية ؛ لعل وعسى ..

بُحَّ صوته ، صمت ، تأنَّى ، شدَّ الانتباه :

- رئيس الأركان غاب عن اجتماع قادة الجيوش العربية في مصر ؛ فكانت ليبيا الغائب الوحيد ، تمثيل ليبيا في القمة العربية متدن وضعيف يؤديه ولي العهد ، وأنتم ، على كل من حباه الله بذرة كرامة منكم أن يكون غدًا في الموعد .

"الحاج جاد الله" كان يتنصت في قلق أرهق شيخوخته ، اشتد به الضيق ، هؤلاء الصغار دون الرشد ، عيال لا يدركون ، أنهضه الغضب ، تعثَّر ، استند ، خطا ، فاجأهم ، صدر عنه صوت من فم أهتم فبدا فحيحًا :

- ما لنا والأردن وفلسطين وسيدي عبد الناصر؟ .. اغربوا عن وجهي .. صيَّع .. فروخ .. أتفو .. شحاذون ..

لجلج فتى ثم ألجم ، تربَّى فتيان السوق القبلي على احترام كبار السن ، يخفضون لهم جناح الذل فهم في مقام الوالدين ، طأطأوا الرؤوس ، أطبق الصمت .. تزحزح الفتيان يغادرون ، مسح "الحاج جاد الله" ما طفر من زبد على طرفي شفتيه أثناء هوجته ، ودخل يتأهب لصلاة المغرب .

كانت ميزانية الوطن آنذاك تعتمد على الهبات والمساعدات وقليل من المال يرد سنويًّا من الغرب تحت بند إيجار القواعد العسكرية ، وكان الوطن يحتاج إلى معجزة كي تقوم قائمته ، لكن ، يفغر فتى ساخر فاه : مذاق الصدقات مرٌّ ومُهين .

يسأله رفيقه في جدية : قل لي :

"لا تسقني كأس الحياة بذِلَّة/ بل اسقني بالعز كأس الحنظل" .. مقررة حفظ؟! مدرس العربي قال .

ينتفض مغادرًا صارخًا في وجه رفيقه :

- امش من قدامي .
- الله أكبر .. الله أكبر ..

هرع المصلون إلى الجامع ، قبل صلاة المغرب وقف الشيخ سالم إمام الجامع ، تصفح الوجوه المتوجسة قال بصوت غليظ :

- امنعوا أولادكم غدًا من التظاهر .

وقف سيدي أسويكر مغتاظًا :

- يجب أن تتم هذه التعميمات بعد الصلاة .. و

وقاطعه الشيخ سالم :

- بعد الصلاة ينصرفون .. اللهم إنّي قد بلّغت .

أضاف "سيدي أسويكر" :

- ومن حق أي مواطن يتأذى أن يحتج .. يقول "أح" على الأقل ولو بصوت واطئ؟

صوَّب "الشيخ سالم" عينيه نحو أحد المصلين فتململ وتربَّع ، لفتت حركته أنظار المصلين إليه ، تبيّن الشاويش "بلح" متخفيًا في زي مدني ، أشاح ، ظهر إلى يمينه المختار وإلى يساره وجه غير مألوف ، "سيدي أسويكر" يتابع المشهد بعيني صقر ممتعضًا ، أقام الشيخ الصلاة .

أمام الجامع ، بعد الصلاة ، بدا أن المختار كان على موعد مع الشاويش "بلح" والآخر ، بدأ الحديث وشوشة لكنه علا ، "سيدي أسويكر" كان يسترق السمع ، سأل المختار :

- والفحوى؟!

استرسل الشاويش "بلح" :

- امتناع "صابرين" عن العودة إلى شقة "الكابتن" إيرل .. أغضبه كثيرا .. (يصمت) .. ثم استدعاني . (يضيف) : قدَّم بلاغًا ضد "صابرين" يتهمها بالسرقة!

- ماذا سرقت؟!

سأل المختار مدهوشًا .

- الكابتن إيرل لم يكن في وعيه .. كان مخمورا .. لم يقل .

نطق رجل أمن الدولة إذ صار مألوفا :

- الكابتن إيرل عرض أن يتنازل عن البلاغ إذا عادت "صابرين" إلى العمل خادمة في شقته!

انفجر "سيدي أسويكر" يصرخ :

- "صابرين" لن تكون خادمة عند النصارى .. "صابرين" منعتها كرامتها من الاستمرار خادمة عند الضابط الإنجليزي بعد ما لحق بالطفل "نصيب" .. الخنزير المخمور يريد إرغام "صابرين" بقوة التجني .. بأي منطق يقبل سارقة في بيته؟! ثم ماذا سرقت؟! .. وأنت يا "بلح" كيف تقبل أن يستدعيك؟! أنت تفرط في سيادة وطن .. يا حنك ..

تحلَّق مصلون حول الوقوف ، شاع الخبر ، نفث "سيدي أسويكر" سعيرًا ألهب الموقف :

- "صابرين" تحت حمايتي .

قال رجل أمن الدولة بصوت خافت بارد :

- البلاغ يقتضي احتجاز "صابرين" التي لا يمكن احتجازها في مركز الشرطة ، ستحوَّل إلى سجن النساء رفقة سجانة وستكون القضية أكثر تعقيدًا .

ساوى المختار معرقته ، تأوه ، اقترح وكأنه يقرر :

- الآن .. سأزور "صابرين" .. إن شاء الله خير .

بُعيد هوجة "الحاج جاد الله" اتجه فتيان إلى المقهى فالوقت باكر ، لكن "القهوجي عبد السلام" كان يجمع

الكراسي والطاولات ويرصها في داخل المقهى متأهبًا للمغادرة متحججًا بوعكة ، وإن بدا أنه كان في مشهد الناصية فاقتضت الحالة كامل الحذر ، استاء الفتيان ، مضى نفر إلى بيوتهم ، "مصباح" يتلصص من وراء ظهر "العبَّردي" الشاخص متابعًا ما يجري ، "علي" و"محمد" و"مفتاح" خطوا على مهل إلى شارع الاستقلال .. عند ميدان الشجرة لاحظوا تواجدًا للقوة المتحركة ، مشوا لا يلوون حتى الجامعة ، كانت الجامعة مطوَّقة بقوات "البوليس" ، لم يعترض مسارهم أحد ، تفرَّقوا حتى لا يثيرون شبهة ، عائدين إلى بيوتهم متوجسين ، ليلة مؤرقة تلاها يوم آخر .

انتظم الطلاب في طابور الصباح ، قبل أن يؤدوا تحية العَلَم ناداهم مناد من خلال مكبر صوت :

- يا شباب .. هيَّا إلى الشارع .. هيَّا إلى المظاهرة .

تدافعوا ، طلبة ثانوية بنغازي ، تدفقوا إلى شارع الاستقلال يهتفون لفلسطين ، للوحدة العربية ، ينادون بمشاركة فاعلة في مؤتمر القمة ، ينددون بغياب الوطن الأصغر عن الوطن الأكبر ، انضم إلى المظاهرة مواطنون ،

التحموا بطلبة الجامعة ، اشتد إيقاع الطوفان الهادر فيما بين الديوان الملكي والحديقة العامة ، بدأ "البوليس" بإطلاق الرصاص الحي في الحديقة العامة ، تصدَّى له المتظاهرون بالهتاف والحجارة والفرار .

سقط "علي" و"مفتاح" و"محمد" قتلى ، الإصابات كانت عديدة لكن الجرحى لجأوا إلى بيوتهم اتقاءً ، مات آخرون تباعًا ، احتسب الأهالي القتلى شهداء ، تلظى الغضب بين الأهالي فإستعرَّ في كل الأرجاء ، أعلن الأهالي الحداد والعصيان المدني ، أعلنت الدولة حالة الطوارئ القصوى ، كان خيار المعالجة الأمنية خيارا تعوزه الحكمة .

تم تشييع الشهداء في مواكب مهيبة ، حشود كانت تؤم المآتم ، العزاء واحد ، جموع كانت تعود الجرحى ، الوجوه كانت شاحبة كالحة ، العيون متوجسة ، الحركة بطيئة مترددة الأحاديث مقتضبة جادة ، لكن الحياة لا يمكن أن تتوقف .

سرت الحياة في السوق القبلي فشرِّعت أبواب الدكاكين ، نُثرت الكراسي والطاولات على رصيف المقهى ، أُخرس المذياع فانزلاق مؤشره على محطة صوت العرب كارثة ..

أقدام قليلة تدب في السوق القبلي ، جاء "مصباح" يتمطَّى ، يتثاءب ، يتلكأ في استخارة ، يفاضل بين الناصية المحظورة والمقهى المخفورة ، المكانان مريبان :

- صباح الخير يا سيدي "العبَّردي" .

ردَّ تحيته بصوت خافت :

- صباح الخير

"مصباح" لم يعبأ بفتور "العبَّردي" ، "للعبَّردي" شطحاته ، رجل مزاجي وأحمق ، اقتعد صندوقًا خشبيًا صغيرًا ، قال "العبَّردي" :

- يبدو أنك لم تنم الليلة البارحة؟!

أدرك أن "العبَّردي" يستدرجه للحديث في السياسة ، منداف* من مناديف "العبَّردي" :

- نمت سويعات قليلة .

- ما الذي يؤرقك؟

- الحُب .

أجاب مصباح ثم :

- حليمة يا "عبَّردي"!!

---

* منداف : مصيدة .

تهلل وجه "العبَّردي" ، الحديث في الحُب يُزهي الروح ويجلِّي النظر ، الأهم ، "مصباح" شاب ، شريحته العمرية مدعاة للاشتباه ، لكن ما دام مهمومًا بالحب ، "خلِّيه يعوم" قال "العبَّردي" في خاطره :

- متى رأيت حليمة آخر مرة؟

فوجئ "مصباح" بالسؤال يصفعه ، ارتبك :

- لم أر حليمة على الإطلاق .

- لم تر حليمة أبدًا .. لم تتحدث إليها .. لم تتبادلا أية مشاعر .. وريقات .. كيف هذا الحُب؟!

وغمز بما يعني أن "مصباح" يداري ويواري ولا يريد أن يبوح بتفاصيل .

- "حليمة" ـ ربما ـ لا تعرف حتى اسمي .. لكنني أحب "حليمة" .

- ما رأيتها ولا رأتك .. ما سمعتها ولا سمعتك .. كيف يتحاب اثنان لم يلتقيا أبدًا؟!

- سمعت صوتها خلسة ليلة إصابة "نصيب" .

- ثم أحببتها؟!

- أبدًا .. كنت أحب "حليمة" قبل ذلك .

- كيف .. أفهمني .. حبك عصي على الفهم .
- أحببت مزاياها ، جمالها ، رقتها ، أنوثتها ، رجاحة عقلها ، كما تحدثني أمي .

"العبردي" فاغرا فاه :

- سلِّم أمك!!

أسند خديه راحتي كفيه :

- اسمع يا ولد ما يبكيك لا ما يضحكك .. هذا لعب عيال!

كان وقع كلام "العبَّردي" على "مصباح" شديد الوطأة ، اجتثت ذلك الحلم الجميل بفظاظة ، خارت قواه حتى كاد يهمد ، خشي أن ينهار فيبان ضعفه ، لكن ضعفه بان جليًّا في سحنة وجهه وخلجاته ، في لهاثه ، في صمته .

- لا تعاود القول حتى لا تصير هزاة .

أشفق "العبَّردي" على "مصباح" ، ندم ، نهض ، أطلَّ على السوق وكأنما يهرب من فعلته ، تململ "مصباح" إنباءً بالمغادرة ، وضع "العبّردي" كف يمناه يربته رأفة ويبقيه ، ظلا جالسين دون كلمة ، وجوم ثقيل يطبق على

المكان ، أرغم "العبَّردي" "مصباح" على احتساء طاس شاي لعلّه يفيق .. تجرَّعه رغم مرارته ويباس البلعوم ، رطبَّ حلقه بقليل من الماء البارد ، وأسلم بدنه لخدر ناعم .

شقّ "العبَّردي" الصمت بصوت جهوري ودود :

- اسمع يا ولد .. كلام الحق وجَّاع .. ووالله لو لم تكن عزيزًا ما صارحتك .. "حليمة" فتاة جميلة طرية يانعة ناضجة .. هي يا بُني بضاعة نادرة في سوق النخاسة .. هي وأهلها يتوقون إلى زبون غني بزي عريس .. توق مستحيل .. العريس الغني لن يجيء على الإطلاق ، ليس هناك من يجرؤ على تخطي الجدار الفاصل بين الغنى والفقر ، هذا لا يحدث إلا في خيال الشعراء والعاشقين ، من يقدم على اقتطاف وردة ، وإن عبقت كل الأنحاء بشذاها من كوخ في سبخة .. إن وجد يراودها ، يغريها بحلو الكلام والنقود ، يتحرَّش بها حتى يناها .. أما الزواج فلا .. لا ..

استغرق "مصباح" في الإنصات ، تدفَّق "العبَّردي" مسترسلا :

- أنت أفقر من فأر جامع منقطع عن الدراسة غير مؤهل عاطل من أسرة فقيرة .

نبر "مصباح" :

- أهلي .

قاطعه "العبردي" :

- دعني أكمل .. جدلاً أرغمت أهلك .. جدلاً قبلوا بك .. أنصحك لا تتزوج امرأة جميلة ولا تقتن مركوبًا فارهًا .. احتمالان قصيان .. ولكن قلنا جدلاً لا تفعل .. لأن كل من يراهما يتوق إلى امتطائهما فتتحول أنت إلى حارس مهووس أو تيس خانع .. أنت طيب يا "مصباح" وغير ذي خبرة في الحياة .. اقذف الأوهام وراء ظهرك .. ابحث عن عمل .. وابدأ ..

لانَ مصباح ، هكذا بدا عندما قال :

- لا يوجد عمل .

- عتَّال بالميناء .. العمل الشريف ليس عيبًا!!

غاص به المنطق في أعماق حيرته ، كفيف غير قادر على رؤية طريق يسلكه نحو التوق في الحب والحياة ، عاجز عن الخلاص مستاء .

قال "العبَّردي" :

- أنت يا ولد مراهق يفور بطاقة الشباب .. الجنس حاجة ضرورية كما الغذاء والماء والهواء .. فرِّج عن كبتك .

- كيف؟!

تضاحك "العبَّردي" في خبث :

- عليك بالمبغى .. مكان قانوني صحي قصي ، تجد فيه الجميلة التي أغواها أولاد الحرام حتى صارت بغيًّا ، وتجد فيه القبيحة التي ما ابتغاها رجل فبادرت إلى العهر تمتهنه .

زمَّ "مصباح" شفتيه ، هزَّ رأسه استنكارا :

- أنا أبحث عن حب .. أنا أبحث عن مودة ورحمة .. أنا لا أبحث عن مبولة!!

غادر "مصباح" مندفعا إلى السوق القبلي ، فوجئ "العبَّردي" ، بُهت ، استعصى عليه القول فراح يتمطق بشفيه حائرًا .

جاءت "صابرين" وفي خطوها وهن ، متثاقلة تمشي مطاطئة الرأس من عمارات النصارى إلى السوق القبلي ،

تشدّ بيد طرفي العباءة وبأخرى قفة خاوية ، تتقدم صوب الدكاكين وكأنها مدبرة ، لا تجوس عيناها الكسيرتان المكان خشية أن تلتقي عينين متسائلتين :

- ماذا حدث يا صابرين؟!

أجابت "صابرين" دون أن تنطق :

- خيَّرني المختار بين أمرين أحلاهما مر .

نفرت من العينين الكسيرتين دموع ، كادت تجهش ، طغى على العذراء البتول شعور دافق بالخيانة تجرجر أثقاله دون عضيد . توقفت أمام دكان "العبَّردي" ، تحدث الصمت هنيهة وغامت العيون ، تنحنح "العبَّردي" :

- أهلا يا صابرين .. ها ..

آيبة إلى عمارات النصارى تدثرت بالصمت ، دثار الصمت حجب الكلام فما نطق ناطق ولا اعترض معترض ، العيون فقط كانت ترصد خطوات "صابرين" ، تغمرها بالحب ، الإدراك العميق الموحد تصدَّى شفاعة لمعاناة "صابرين" ، "سيدي أسويكر" انفلت زمامه .. انفجر :

- والله ما في السوق القبلي رجل!

دفع درَّاجته متأنيًّا مترقبًا أن ينطق أي بكلمة ، تأوه :

- خلوة النجع من سعد* الجدع العطيب .

شقَّت صرخة وعياط وولولة أرجاء السوق القبلي ، وانتفض "العبَّردي" متطلعًا يقول :

- أي والله .. عليك نهار!

خرجت "أخويدم الله" من دكان "الحاج جاد الله" تولول ، تلطم خدّيها ، تنتحب تعدد :

- يا قليل الوالي يا نعَّاس .. يا قليل الوالي يا غالي .. يانا عليّ يا خوي .

من وراء "أخويدم الله" خرج الحاج "جاد الله" معتمدًا عكازه ، رشَّحت عيناه دموعًا ، بدت الفجيعة موجعة ، أخبر بصوت أجش :

- البقاء لله .. "النعَّاس" مات .

أغلق باب دكانه حد المواربة على "النعَّاس" المسجى على السرير بعد أن غطته "أخويدم الله" بملاءة جديدة بيضاء ، فحجبت الجسد من الرأس حتى القدمين .. اقتعد "الحاج جاد الله" كرسيًّا يسد به باب الدكان كي يمنع الدخول ؛ فللموت حُرمة .

---

* سعد : حظ .

عندما جاء الطبيب للكشف على الجثمان وإصدار إذن الدفن يتقدمه الشاويش "بلح" والمختار ، يوسعان له الطريق ويخترقان به حشدًا من الناس ، وبعد أن تفحص الطبيب جثمان "النعَّاس" ، وحصر الشاويش "بلح" مقتنيات "النعَّاس" فكانت المذياع وعلبة النفة والنظارات وما يرتديه من ثياب رثة :

- لا أوراق ثبوتية .. من يعرف "النعَّاس" يا ناس؟!

علا صوت الشاويش "بلح" فخاطب الحشد ؛ فلم يجب أحد ، التفت صوب "الحاج جاد الله" يسأله :

- وأنت يا حاج جاد الله؟

- لا أعرفه .

- كيف؟ وأنت تؤويه؟

- المعمول لوجه الله .

بان رجل خاطب الشاويش "بلح" :

- يا شاويش "بلح" .. اسمه "الأطرش" لأنه كان أصم .. اسمه ليس "النعَّاس"!

- سأتدبر الأمر .. إكرام الميت دفنه .

تعاضد الأهالي ، تداعى سائر الجسد ، تقرر أن يُنقل الجثمان إلى الجامع ، سُجِيَ في نعش حمله فتيان السوق القبلي يرددون : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

بادرت عجائز وصبايا "زنقة العويلة" إلى إغراق أرغفة الخبز بزيت الزيتون والسكر ، ترص في الأطباق كي توزع على الناس عند تشييع الجنازة صدقة بالغة كما جرت العادة .

اتفقت النسوة على إقامة ليالي العزاء في "زنقة العويلة" ، نصب رواق يحجب النساء ، وطُرحت الحصائر والتأم المأتم ، أقيم مأتم "النعَّاس" في حوش الجامع ، "سيدي عبد الجليل" تكفَّل بمصاريف المأتم ، اعترض كثيرون ؛ فتم الاتفاق على أن يسهم من يشاء بما يقدر ، وعلى أن يتولى الأمر "سيدي أسويكر" ..

شُيِّع "النعَّاس" في جنازة كبيرة تتقدمها "أخويدم الله" تشد قفطانها تمزقه حتى كادت أن توقع الرداء ، تلطم خديها ، تعيِّط ، تدق الأرض بقدمين حافيين :

- يا نعاس يا غالي يا قليل الوالي .

تصدَّى لها الشيخ سالم :

- ليس منَّا من لطم الخدود .. هيا امشي إلى "زنقة العويلة" .. عزاء النساء .

صفَّق فتى بيديه احتجاجًا :

- السوق القبلي ولي من لا ولي له .

انصاعت "أخويدم الله" ومشت تترنح مولولة إلى "زنقة العويلة" .

ثالث ليالي المأتم تبادل الناس التعازي ، "الحاج جاد الله" الذي اكتفى بحضور الليلة الثالثة عجزًا كان يتلقى التعازي جالسًا ، وقد أسند كفيه على كعب عكازه ، تمتم :

- تركة "النعَّاس" "راديو" وعلبة نفة .

توقَّع أن يرد "سيدي أسويكر" شكَّ في أن يكون سمعه . هسهس :

- تسمعني؟

أجاب "سيدي أسويكر" :

- نعم .. نعم ..

- علبة النفة فارغة وكذا "الراديو" فارغ .

- المذياع فارغ؟! كيف؟

- صندوق خشبي خال من كل شيء .. موصول بسلك كهرباء فقط .. مطبق على خواء .

هزَّ "سيدي أسويكر" رأسه يمنة ويسرة في استغراب وحيرة ، رجل في مقام "الحاج جاد الله" لا يمكن أن يكون كاذبًا .

تساءل الحاج جاد الله :

- هل كان ينصت للصمت؟!

بعد أن حوقل "سيدي أسويكر" قال :

- نعم .. كما أي مواطن .. المذياع دون محتوى .. والمواطن أطرش .

اكتملت أيام المأتم ، فُضَّ العزاء . لم يتبق من "النعَّاس" إلا دُعابة فيقال أن فلانا مثل "راديو" "النعَّاس" ، أي فارغ!! ..

الحياة في السوق القبلي تمضي على ذات المنوال ، لا شيء تغير ، فقط ، مكان "النعَّاس" صار شاغرًا ، وإن بقي في أحاديث الشيَّاب حاضرًا .

الفتيان توافقوا فصاروا يلتقون في المقهى ، اختفاء "مصباح" كان موضع ملاحظة :

- وفقه الله إلى عمل مع شركة تنقيب عن النفط في الصحراء .

قال إبراهيم وأضاف :

- سيجيء في أجازة بعد أسبوع .

الحياة في "زنقة العويلة" تبدأ كل أصبوحة في بيت ، كما جرت العادة ، تتحلَّق العجائز حول براد الشاي بعد أن يفطرن في الغالب "شرمولة"* وخبز إلا إذا :

- كعك .. عك .. عك .. بالسكر .

رجل عجوز برجل اصطناعية وعين واحدة كان انفجر بين قدميه لغم من بقايا الحرب عندما كان يحصد زرعه في البر ، صار عاجزًا وفقيرًا وبائعًا متجولاً لكعك تعده عجوزه فلا يجني من ورائه إلا الرزق القليل .

تضاحكت العجائز ، أخرجت خالتي "أسعيدة" من صُرة النقود قطعة نقود معدنية وأرسلت في أثره طفلاً ، كان شراء الكعك منه يقوم على الصدقة لا الحاجة ، كعكه صلب يخلو من السكر إلا قليله لا ترحيه أسنان العجائز فيغمسنه في الشاي حتى يلين .

---

* الشرمولة : السَّلطة .

جاءت "القطيطة" ، أوسعت لها خالتي "شرَّافة" مكانًا ، جلست :

- يا رافع السماء بلا عمد سخِّر لي سيدي حمد .

سألتها خالتي صالحة :

- من سيدي حمد؟

- ولي من أولياء الله الصالحين .

- لم نسمع بولي صالح اسمه "حمد" .

- افتراضا ، لا بد أن يكون هناك ولي صالح يدعى "حمد" ، هم كثر .

ناولتها خالتي "شرَّافة" الشاي والكعك .. بدا للعيون أن وراء الأكمة شجرة الجن .

شجرة الجن شجيرة في مربع أشجار السرو المقابلة لعمارات النصارى من جهة ، و"زنقة العويلة" من جهة أخرى ، يقتطع من ثمرتها جزءٌ يُغلى ويُبرَّد ويُحلَّى حتى إذا ما استسيغ شربته "القطيطة" ؛ فغابت عن الوعي مسكونة بجن يجيب عن أسئلة العجائز بلسان "القطيطة" حول كل المسائل الغامضة : زواج العوانس ، فك المربوط ، الإفراج عن سجين ، وما شابه ، أدركت "القطيطة" المطلوب :

- لا والله يا خية .. المرة الفائتة تعبت كثيرًا .. يسكن الجن جسدي ولم يغادره إلا بعد أن توسلت "سيدي حسين" عدة مرات .. شيء لله يا "سيدي حسين"!

ندمت خالتي "شرَّافة" على الحفاوة ، وأشاحت عن "القطيطة" استياءً :

- مرة تصيب ومرة تخيب!

تضاحكن نكاية . اندفع طفل إلى السقيفة فرحًا يخبر :

- يا خالتي .. يا خالتي .. "مصباح" جاء .. جاء "مصباح"!

عاد "مصباح" بوفر حصته من الأجبان والعصائر وعلب التُن والسردين والنقود ، وحظيت عجائز "زنقة العويلة" في أصبوحة احتفاء بإفطار شهي نادر ..

وجه الأب تهلل يحصي المغانم ، ويعد النقود غير معترض على دخان الفاسوخ ورائحته الكريهة بعد أن أطلقته "أم مصباح" اتقاءً لشر حاسد إذا حسد .

- بيت رجال ولا بيت مال .

جذلاً مرحًا نشطًا متدفقًا "مصباح" ، يخال "حليمة" تقدم كما الفرح في يوم عيد ، يسكنها في عينيه ويطبق الجفنين ، يدغدغ الخيال مشاعره فيتطلع إلى الغد مبهورًا مغمورًا بالحُب حتى فروة رأسه .

- هيا .. يا ذاك اليوم .. أقدم .

اغتسل ، ارتدى جديد ثيابه ، امتطى نعليه ، مرق إلى السقيفة حيث أمه تكنس ، احتوته عيناها فغمره ألق الحُب ، شاء أن يغامر لكنه تردد :

- يا أمَّه .

- غداؤك اليوم كسكسي بالقديد وعظام العيد .

شكر أمه . سكت . تجاسر :

- ما فعل الله بـ "نصيب"؟

تشاغلت ، بدت كما لو كانت في غفلة ، أبرق الإشارة مرة أخرى ، أجابت في اقتضاب :

- تعافى .

صفق "مصباح" الباب ، وتوارى في "زنقة العويلة" ، تهاوت أمه على الحصيرة في وسط الحوش ، استندت إلى الحائط ، انكبت تتنازعها الأفكار والخواطر ، شظايا في الثنايا تلهب الذات وتؤجج الوجع :

- آه يا كبدي .. آه يا ولدي .. آه يا وجعي .. لن أغتال الفرح في عينيك .

راوح "مصباح" بين خيارين : بحيرة الملح أو السوق القبلي ، اختار بحيرة الملح إذ ربما رأى الطفل "نصيب" ، قد يلمح "حليمة" ، تردد :

"ارزن يا رجل لا تتعجل ، كفى خطأ سؤالك أمك عن "نصيب" ، كل أمر بميقات" .

لكنه كان قد وصل بحيرة الملح ، استطاب الوصول .

"ما شاء الله" ، قال في خاطره ، فرك عينيه مرارًا ، بدا الكوخ مطليًّا بالبياض ، وقد سوِّيت الأرض المحيطة به وكسيت بالرمال والحصى ، دُكَّت إلى الكوخ طريق ، اختفت القمامة وأكوام الحجارة وبواقي البناء ، تبع التابع المتبوع ففرت الكلاب الضالَّة والقطط المتنمرة ، أُبيد الذباب والناموس ، بدا المكان نظيفًا وضاءًا ، رصد الكوخ بعينين قلقتين ، باب الكوخ موارب ، ما بانت "حليمة" ولا ظهر "نصيب" ، ربما هي القيلولة . خشي أن يفاجئه "سيدي عبد المجيد" :

- "سيدي عبد المجيد" .. لا بد .. مؤكد تقاضى تعويضًا عمَّا أصاب "نصيب" .

راعه ما يراه ، بحيرة الملح صارت تتحول إلى سبخة .. الشمس بخَّرت مياه بحيرة الملح ، والسماء ضنَّت بالغيث النافع ، والنوارس اختفت ، غادرت بعد ما حدث من تحول فالمكان لم يعد مكان بقاء .

سعى إلى السوق القبلي مشدوهًا ، تجنَّب دكان "العبَّردي" ، وإن اختلس نظرة أباحت له رؤية "العبَّردي" مُنكبًّا على براد الشاي ، بضعة شبان كانوا في المقهى بادلوه التحية في فتور ، علاقته بهم لا ترقى إلى مرتبة الصداقة ، وإن تجاوزت حدود المعرفة ولكن : أين "إبراهيم"؟!

عندما عاد بُعيد العصر عند الأصيل لاح "إبراهيم" قادمًا ، عانقه ، احتضنه ، جرا كرسيين ، وانتحيا طاولة قصيَّة .

قال "إبراهيم" مداعبًا :

- جرى في وجهك الدم .. عيني ما تضرك!

- خيرات يا خويا .. لحم ضأن وسلطات وعصائر .. دجاج مشوي ..

قاطعته ضحكة "إبراهيم" :

- الدجاج .. الدجاج .. منذ حين فقط عرفت أن الدجاج هو "الفراخ" ، وأنَّ الدجاج يُذبح ويُحمر

ويُؤكل ، أمي علَّمتنا أن الدجاج يبيض فقط ، وأن بيض الدجاج يُوضع في قفة ، وينادي : عليه أمام عمارات النصارى :

- Eggs .. eggs!

تساءل "مصباح" :

- كل البيض؟!

أجاب "إبراهيم" :

- بيضة واحدة في كل أربعاء تؤول إلى فقي الجامع نظير تحفيظ القرآن .

- والديكة؟!

سأل "مصباح" .

- الديوك لا تبيض .. تعتلي الدجاجات إلى أن تهرم وتعجز فتُذبح وتُطبخ كي تزدان بها وجبة "بازين"* احتفاءً بضيف عزيز .

- قل لي يا "إبراهيم" .. ما فعل الله بالطفل "نصيب"؟!

---

* بازين : عصيدة من دقيق القمح أو الشعير بطبيخ اللحم والبطاطا والبيض المسلوق .

obeikandl.com

وكأن "مصباحٍ" ألقى بحجر في بِركة ؛ فعلت سطحها فقاقيع ووحل وغثاء . ما انتبه .. بصوت واهن ، ردَّ "إبراهيم" :

- تعافى .

قال "مصباح" يخبر "إبراهيم" ، وكأنَّه يسأله :

- "سيدي عبد المجيد" تقاضى تعويضًا عما أصاب "نصيب"؟!

- ممن؟

- الضابط الإنجليزي .

- نحن في عيون هؤلاء الأوباش يا "مصباح" .. بهائم .. حثالة .. شحاذون .. ليس أكثر .. التعويض عن المساس بالكرامة يكون بالدم وليس بالنقود ..

تناهى من ناحية الجامع ضجيج ، دقَّات طبل وزغاريد ، لاحت عربتان يجرهما حصانان يطرقع قائداهما كلٌّ بسوط ، وتجلس في داخلهما نساء متلحفات تحميهن مظلتا العربتين من عيون الرجال ، يتناوبن الزغاريد مقدمات ، يبان من وراء العربتين عربة "كارو" يجرها

حصان ، محمَّلة بصناديق وصرر وأكياس ، يتقدم العربتين فتيان يصفقون متناغمون مع إيقاع دقات الطبل ، يرقصون ، يهزجون :

"الصابري عرجون الفل .. الصابري عمره ما ذل ..

الصابري ورد وياسمين .. الصابري زين على زين"

قادمون من حي الصابري إذن ، المفاجأة أخرست "إبراهيم" ، الدهشة ألجمت لسان "مصباح" ، تابعا انحدار الرتل من العليا ، علا الضجيج وصدت دقات الطبل ، وتوالت الزغاريد ، وشق موكب العرس السوق القبلي .

- غيطة!!*

في وسط السوق القبلي توقفوا إشهارًا ، تحلَّق الفتيان حول الطبَّال يصفقون ويترنحون ، الطبَّال أراح الطبل المشدود بحبل حول رقبته على بطنه ، بينما تفرَّغت يداه تجلدان الطبل بالعصا في هياج حتى بدا محور الغيطة وسيدها ، وهيَّج الفتيان فاشتد التصفيق يتقافزون ويهزجون ويتبارون في إبداء الفرح .

- عرس من؟!

---

* غيطة : موكب عرس .

أشاح "إبراهيم" بوجهه ، لم يعبأ "مصباح" ، التحق بالحلقة :

- عُرسُ منْ؟!

- عُرسُ سعيد؟!

- سعيد منْ؟!

تمتم "إبراهيم" ، وقد فاض به الألم : "أي سعيد" .

علت الوتيرة ، اندفع "مصباح" إلى وسط الحلقة ، رفع كفَّيه إلى السماء قبالة الطبَّال ، كفَّ الطبال ، صمت الفتيان ، هكذا تقتضي أصول استقبال الغيطة تحية أهل الدار ، ندى عن "مصباح" صوت يهزج مستغيثًا :

- شيء لله يا "سيدي حسين" .. شيء لله يا "سيدي حسين" .. كان قسم مكحول العين .. لك وعدة* يا "سيدي حسين" .. أنا اوليدك .

اشتدت دقَّات الطبل ، صدى صوت الفتيان جماعيًّا عاليًا يرددون مع "مصباح" ؛ فلكلٍ وجعه ، اندمج الكل في الكل ترحابًا بعراجين الفل ، أو هكذا بدا المشهد حتى انتهت مراسم التحية .

---

* الوعدة : النذر .

تُكئ الجرح ، تناوبته مشاعر متباينة ، "حليمة" هي مكحول العين ، و"مصباح" هو ولد "سيدي حسين" ، "سيدي حسين" سيتدخل حتما لصالحه ، نطَّ حتى علا ، كمن مسَّه جن ، ثم هوى وسط الحلقة يرقص رقصًا شديد الإيقاع ، كان هاويًا وكان متمرسًا فتميز رقصه ..

استهوى الفتيان والطبّال ؛ فعاضدوه بينما "مصباح" يلهث وقد رشحت عيناه بالدموع وتعرَّق وجهه ، جثا على ركبتيه رافعًا كفيَّه إلى السماء يتوسل ، يتسول :

- "شيء لله يا سيدي حسين .. أنا اوليدك يا سيدي حسين" .

طغت الزغاريد على كل الأصوات ، بلغ إشهار الزواج في السوق القبلي مداه ، استُهجِنَ التباطؤ ، ووجب أن يتحرك الرتل صوب الغاية .

تابع "مصباح" بذهول انعطاف موكب العرس نحو السبخة ، شدَّه "إبراهيم" من يده ، أفلتها ولحق بالموكب يتبعه ، بدا الكوخ مزدانًا بمظاهر الفرح تنطلق منه الزغاريد وعبارات الترحيب والتبريكات ، ويرشُّ موكب عرجون الفل بماء الزهر .

- يوم رمي* .. بنت عبد المجيد .. "حليمة" .

أُغمي عليه ، وقع ، الصدمة عنيفة ، والفتى مهووس بالحب حتى الثمالة ، رشَّ بماء بارد فما أفاق ، حمله "إبراهيم" وآخر إلى بيته ، سُجِّي على فراشه ، غُطّي بملاءة حتى الصدر ، عويل الأم يتعالى متمردة على خزرات الأب :

- آه يا كبدي ..آه يا ولدي .

أفاق بعد ثلاثة أيام . اختفى .

اعتور السوق القبلي الحادثة ، تباينت الأقوال ، احتد الجدل ، اختلفت التأويلات ، تعددت التفسيرات ، لكن السؤال ظلَّ قائمًا دون جواب :

- ما دهى "مصباح" ؟!

حسم أحدهم الجدل ، وكأنَّه محاط بما لم يحط به أحد :

- صرع!! رغم كل ما يبدو على "مصباح" من مظاهر العافية إلا أن "مصباح" ـ عافاكم الله ـ مصاب بالصرع .. عاجلته النوبة بعد مجهوده الخارق في الرقص!

---

* يوم الرمي : أو يوم القفة ، أول أيام العرس .

مسَّد "العبَّردي" شاربيه الكثين بـبطن إبهامـه ، أجـال عينيه في كـل الأنحـاء ، ثم خـزر المـتحلقين حـول الطاولـة بازدراء ، هراء ، فجيعة "مصباح" لا يجب أن تلوكها ألسنة غِرَّة ، لن يبوح هو ، سـيظل الـسر مخفيًـا منـه إلى مـا شـاء الله ، لن ينطق مهما اشتهى القول .

"إبراهيم" ، وقـد نـال منـه الوقـوف والعنـاء منـصتًا للهراء ، عزَّ عليه ما آل إليـه صـاحبه "مـصباح" مـن شـقاء وتيه في أتون الـصحراء وحيـدًا دون يـد تربـت أو صـديق يواسي ، انسل يتوجع ويتأوه مغالبًا رغبة متأججة في البوح بما جرى .

- تصبحون على خير يا شباب .

كان الشيخ سالم عائدًا من الجامع بعد صلاة العشاء ، لكن السوق القبلي لم يصبح على خير .

عندما خالطت الغبـشة ظـلام آخـر الليـل ، وتـسلَّل بياض الفجر إلى صباح جديـد ، اسـتيقظ الـشيخ "سـالم" ، بسمل ، حوقل ، توضأ ، خرج كي يدرك الجـامع لـلآذان ثم إقامة صلاة الفجـر ، لكنَّـه توقَّـف عنـد تقـاطع الـسوق القبلـي وعمـارات النـصارى مبـهوتًا إذ رأى لهيـب حريـق

يتعالى من وراء أشجار السرو ، هرع إلى المكان ، خارت مفاصله فهوى ، كان كوخ "صابرين" يحترق دون أن تلحق النار إسطبل الخنازير .

فرك عينيه ، خشي أن يكون ندى الفجر بللهما فغامت الرؤية وتراقصت الخيالات ، لكن ما كان يراه حقيقة لا خيال ، كيان ينبعث من رماد الحريق ، يتمحور ، يعلو ، يبان ، يتضح ، "صابرين" بغلالة شفافة تحوم فوق الكوخ ، تتهادى في العلا عنقاء يطوِّق جيدها عقدٌ من الفُل الأبيض الفوَّاح ، ترنو إلى شفق بكل ألوان الطيف .

لاذ الشيخ "سالم" بكتاب الله عجزًا وإيمانًا ..

﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ * .

تدافع المصلون يهرولون من الجامع إلى كوخ "صابرين" ، فوجئوا بالشيخ "سالم يجثو" على ركبتيه يبكي قبالة الكوخ ، الكوخ تحولت أخشابه ومكوناته وما فيه من مقتنيات إلى رماد ، أطباق الصفيح تتفكك وتتهاوى حمراء

* سورة يس ـ الآية 78 .

بلون النار ، على بعد بدا أخو "صابرين" وأم "صابرين" ، مرميين في تراب المكان يرتجفان هلعًا ، هرع "سيدي أسويكر" يعاونه فتيان إليهما ، وحملاهما إلى بيت "سيدي أسويكر" الذي خبط صدره براحة يمناه :

"أنا كفيل بهما" .

جاء الشاويش "بلح" ترافقه قوة "بوليس" وبيده أمر قبض ، سأل في حيرة :

- ماذا حدث؟! أين "صابرين"؟!

أجاب "عمر" في حدة :

- "صابرين" في العلا .

لم يفهم ، عيناه تجوبان المكان متفحصة ، صرخ رجل :

- "صابرين" احترقت حتى الموت يا شاويش .

اعترض "عمر" غاضبًا : "صابرين" لم تمت .. "صابرين" باقية .

خشي الشاويش "بلح" غضب الناس ، هادن ، أسر للمختار :

- "صابرين" شجَّت رأس "الكابتن إيرل" بزجاجة خمر

وهربت ، وجدوه ملقى على الأرض ينزف مخمورًا شبه عار إلا من سروال داخلي قصير .

علق "المختار" :

- ربما ليست "صابرين" .

أضاف الشاويش "بلح" :

- وجدنا عباءة "صابرين" بحدائه ؛ يعني أنها غادرت على عجل ، فرَّت .

"عمر" كان يتابع الحديث بعينين شرستين ، صرخ في غضب :

- لا بد أن يكون النصراني المخمور قد تحرش بها محاولاً اغتصابها فقاومته ، العِرض كالأرض ، من مات دونه فهو شهيد .

أشاح الشاويش "بلح" بيده ..

شاع بين الناس ما رواه الشيخ "سالم" عن "صابرين" ، أجمعوا على أن مقام الشيخ "سالم" لا يرقى إليه الشك .

- قديسة!

- ملاك!

- شريفة عفيفة .

- النصارى أحرقوا "صابرين" .

حشود تملأ الوسعاية ، تتداول ، تقرر إقامة صلاة الغائب ، يؤم الشيخ "سالم" الصلاة ، تصطف من خلفه صفوف المصلين ، تصدَّر الصف الأول "سيدي أسويكر" ، "الحاج جاد الله" ، "العبّردي" ، "سيدي بوسيف" ، "سيدي عبد الجليل" ، "سيدي عبد المجيد" ، "المختار" ، وجوه مألوفة وأخرى غير معروفة من أنحاء المدينة ، التحق الشاويش "بلح" بزي مدني .

اصطف "عمر" وشباب السوق القبلي وفتيان آخرون وراء الصف الأول ، تعددت صفوف المصلين حتى ضاقت بهم الوسعاية ، استعدوا للصلاة مولين وجوههم للقبلة ، قبالة كوخ "صابرين" ، طوَّقت "القوة المتحركة" الوسعاية ، ساد المصلين التوتر ، علت التكبيرات ، ارتجت لها الكوامن ، تأججت مشاعر الإيمان ، أُديت الصلاة ، اخترق الشاويش "بلح" الزحام حتى إذا ما اتسع له مكان جلس على الأرض ، مدّ ساقيه ينتحب كما لم يفعل رجل ، يلاحق أكف الوقوف يقبِّلها ، يعانق كل من انحنى كي ينهض به ، دوَّت صرخته في أنفة وكبرياء بعد طول عناء :

- أنا لستُ الشاويش "بلح" .. أنا المواطن "بلح" ولد السوق القبلي .. أجيروني!!

هرج ، ضجيج .. انفضت الجموع عائدة تبارك عودة الغائب ، تثني على "بلح" ولد السوق القبلي وقد تجلى ، تتلمس خطاها المسارب وقد استحكمت حلقات الكارثة فأطبقت على أنفاسها ورؤاها .

صرخ الشيخ الزاهد بكل قوة ضعفه :

- "لقد بلغ السيل الزُّبى!" .

تلاشت أصداء صرخة الشيخ الزاهد في الأرجاء فانزوى . بقي الناس حيارى ، وقد نال منهم الضنك والإعياء ، سكارى وما هم بسكارى أو هكذا بدا المشهد .

* * *

اللوحة لم تكتمل .. تم تجميع فسيفسائها ، تنضيد حروفها ، تأطيرها ، مكتملة تبدو لكنها غير شاملة ؛ فحكاية "صابرين" تضرب بجذورها في أعماق الأرض وتمتد بفروعها إلى آفاق الأبد ، وما يرويه حاكٍ عن "صابرين" لا يشتمل إلا على كم ضئيل في حساب الزمن .

بنغازي ـ الإسكندرية 2015

نواح الحمام

تملَّـى "فـرح" .. العـينان لوزيتـان ، الحاجبـان مزججان ، الشفتان تتوهجـان نضجًا ، الخـدان يشرئبان حمرة خفيفة ويتسقان ، والأنـف الآنـف ، الـشعر مـسبوط على الكتفين .

تملَّى القوام .. يتـهادى لـدنًا في ثـوب نبيـذي شـفاف قصير .. النهدان صـغيران مكـتنزان بحلمـتين كحـبتي رمَّـان ما امتصتهما شفتا رضيع . الجسد مصقول في تناسق بديع ، الساقان توأمان يتلامسان طوعا وينفرجـان إن خطـت عنـد القدمين الصغيرين .

إن هفت ، مقدمة مدبرة ، فاح العطـر مـن الأرداف وعبـق المكـان وتماوجـت في الأجـواء نـسمات المـسك والريحان .

تملّت "فريحة" ..

الفـتى المـصلوب علـى الكرسـي تعريهـا عينـاه في اشتهاء ، عـاري الـرأس والكـتفين والزنـدين والـساقين ، سروال قصير يواري ما خفي ، أما ما عدا ذلـك ، فعـضل

صُبَّ في الساعدين والصدر والكتفين والساقين ، تمثال نحاسي حي أبدع الخالق نحته ، هكذا في العينين اللوزيتين بدا .

اندست في المطبخ ، عاده ذاك الحب في الكلية حيث التقى "فريحة" ، زميلان يدرسان القانون ، التقت العيون ، شُدَّا ، تحابَّا ، تمنَّعت راغبة ، أقدم جسورا ، ما خشي العيون والوشوشات ، لكن "فريحة" تخشى ، تتوجس ، تتردد ، تنتقي حتى الاقتناء ، الوجد شاء : "خطوبة" .

عادت تحمل كعكة العيد ، أوسطتها الطاولة ، غرزت أربع شمعات ، ابتسمت تعتذر :

- لم تنضج تماما .. نفد الغاز .

- سلمت يداك .

أجاب فرح ، أضاف :

- محال الحلويات مغلقة .. الدقيق يكفي المخابز بالكاد!

قاعة الفويهات مزدانة بالمصابيح الملوَّنة والأضواء الوهَّاجة وباقات الورود والعطور الفواحة والصبايا والبنات والأطفال ، أطباق الطعام والحلويات والعصائر

مصفوفة على الموائد .. مطربةٌ تصدح في انتشاء وجوقة الفرقة تردد الغناء تناغما مع دقات الإيقاع وشدو الموسيقى الصاخبة ، والبنات يرقصن فرادى وجماعات ينثرن النقود على فتيات الفرقة هبةً وامتنانًا وسخاءً .

احتضن "فرح" "فريحة" ..

- تقرر أن يكون العرس في الربيع .

ضحكت "فريحة" :

- لكنك تعجَّلت فكان العرس في شهر النوَّار .

- أصْ!!؟!

صاح "فرح" :

- أي نوّار؟!

زلة لسان ، تغاضت ، قالت : كنت أتوق إلى أن يكون العرس في الربيع ، فصل الدفء والخضرة والزهور .

قال "فرح" : الفصول تتداخل والفروق أيام .

عاده العرس ، هي ترفل في ثوب الزفاف الأبيض بين رفيقاتها ملائكة بجناحين ، ومبيض آلات التصوير ، عبارات التهاني والتمنيات ، القبلات والأحضان ، ثم دوت القاعة بالزغاريد :

- العريس جاء .. جاء السلطان .

مدَّ يده إليها ، نهض بها في حياء ، توجها إلى الكعكة ذات الأدوار ، قصَّاها ، اقتطعا جزيئين .. أطعمها ، أطعمته .. جلسا ، ركح المسرح لا يكاد يتسع .. الأمهات ، الجدات والعمات ، الخالات يتعانقن ، يتحاضنَّ ، يزغردن ، الفرح يبكيهن ، يقاومن البكاء بالزغاريد ، بالدعاء حتى حان الأوان ، انطلقا في زفاف مشهود إلى الفرح ، إلى الالتقاء فرادى ، إلى الوصال ، يختالان زهوًّا وحبورًا إلى ليلة المبتغى .

أوقدت "فريحة" الشموع ، عيد الزواج الرابع ، ليلة العمر تباطأت فما كان وصالاً ، "فريحة" العذراء وجفت ، يدها ترتعش بعود الثقاب .. العرس كان ، أما الفرح فليس بعد .

- عاقر؟!

- ربما هي؟!

- ربما كلاهما؟!

- خلل عضوي؟!

- الطبيب قال ...

- يكذبان!!

كادت "فريحة" تصرخ :

- إنه عقر المكان!!

خشت على بوادر الفرح أن تتراجع في ليلة عيد ، دنت منه .. نهض "فرح" ، احتوى "فريحة" ، أحاط الجسد اللدن بذراعيه ، ضغط بصدره على النهدين . لامس بشفتيه الشفتين .. دبيب نمل يسري في البدنين .. يرتعشان في انتشاء .. توشك أن تهوي في ارتخاء ، بلغا المدى ، تجلدت ، تراجعت ، تنبه ، توجه إلى زر الكهرباء ليطفئ المصباح لكن النور انطفأ وجثم الظلام على كل الأرجاء .

أضواء شموع كعكة العيد تتراقص ، الذُّبالات تحترق ، الشمع يذوب ، وجوم وكدر ، توجسات وترقب ، ملاحق انقطاع الكهرباء ، وتداعيات سيادة الظلام ، فتور .. انفضا ، تهاويا على الكنبة ، تلامسا ، تباعدا ، أوسد كلٌّ خده كفه .. ساح الشمع على كعكة العيد وانطفأت الذُّبالات .. غابا ، سكن المكان إلا من همس يندْي .

يتدافعون ، هما ، الطلبة والطالبات ، يسعيان إلى لوحة الإعلانات :

- مبروك يا "فرح" .. ممتاز .

- مبروك يا "فريحة" .. جيد جدا .

انفصلا عن المحيط ، مَنْ يوقف تيار السرور ، دفق الفرح غير متخلف مأفون ، تعانقا ، غابا في الحلم .. ما أفاقا إلا على زغاريد الطالبات يتضاحكن .. بهرن بجرأة تخطت المنظور .. انفكا ، صديقة تبرر :

- خطوبتكما طالت!! .. متى نفرح بكما؟!

أجاب "فرح" :

- الفرح قادم .

سجعت حمامات في الشرفة من أركانها حيث تعشش منذ زمن ، ما عادت الحمامات تهدل .. تشاءم ، جئير ، تساءل :

- نواح الحمام .. نذير

- هديل الحمام .. بشير

- هذا ليس هديلاً ..

- حمام مدينتي رمادي

- الحمام في كل العالم أبيض؟!

سكن الحمام ، انقطع الجدل ، امتطيا مساريهما وغاصا في الأعماق يجوسان في رحاب الزمن الجميل ..

يقول "فرح" : أريد أن أكون قاضيا .

تقول "فريحة" : أريد أن أكون محامية .

يقول "فرح" : اشتباه .. زوج قاضي وزوجة محامية!

يتضاحكان .. استخارة .. مكتب للمحاماة؟ .. القضاء؟ . عائد الوظيفة قليل لا يفي . عائد المحاماة ثراء . كفى الأب الكافل عناءً ، ويبقى التوق دائمًا إلى العدل بالقانون والمساواة .

غاب العدل فلا محاماة ولا قضاء ، ذبل الطموح ، خاب الرجاء ، صار القول في الشأن هزرًا ، والحلم خطرفة ، والنقاش هراء .

يكابدان مرارة الأفول .. يتصديان لضنك العيش ، يغالبان اليأس بالبكاء ، لكن نواح الحمائم لا يُجدي ولا يدفع عن الحياة البلاء .

تعـرَّق "فـرح" .. سـاح الكحـل في العيـنين اللـوزيتين فانساب إلى الخدين المتوردين يشوه البهاء .. اشتد الحر منـذ توقف التكييف ، لزوجة في الأعضاء ، وهـن ، ارتخـاء ، أنفاس تستجدي هبَّة هواء ..

تحامل "فرح" يفتح النافذة ، تمنعه ، يقول :

- كتم؟!

- بل خنق!!

توجه إلى الحمام : اغتسل .. رائحتي ..

- لا ماء .

- ؟؟؟؟؟

- المضخة!!

أضافت : والظلام .

- عسى أن نجد شمعة؟!

- ليس في البيت شمعة .

استدرك : ضوء الشمعة خافت .

خبا النور المتوهج .

لكن أن نوقد شمعة .

قاطعته : بل سنلعن الظلام .

obeikandl.com

شقَّ سجى الليل دوي قريب ، انتفضت تلتصق به في رعب ، ترتعش ، خشت أن تخترق النافذة شظية ، أن تدرك الجدار قذيفة ، أن تصيب سهام الموت الحياة في مقتل .

هو أيضا كان خائفا ، عاجزا ، شاء أن يزج بها إلى حجرة أخرى ، لكن ، كل البيت غير آمن ، الدوي يقترب ، يبتعد ، يتوقف .

ظلا واقفين ، ملتصقين ، ملتحمين ، يرتجفان ، استطابا الوقوف ، غابا في اللحظة ..

- ولد وبنت لا غير .
- بل سننجب أكثر .
- لا .. لا .. ولد وبنت .
- أمي أنجبت ثمانية ..
- أمي أنجبت سبعة .. لكن ذاك جيل ، وهذا جيل آخر .. ولد وبنت يحظيان بالعناية ، بالتربية ، بالتعليم ، بالصحة ، بعقول فائقة تبتكر ، تصنع الغد .

- العدد قليل .

- العبرة ليست في الكم .. العبرة في الكيف .. ما جدوى أن ننجب بهائم تعبث بك ، بي ، بالكل؟؟؟ .. لا .. لا .

خالت الولد والبنت يمرحان في البيت ، يلعبان ، يتشاقيان ، يجريان ، عيناها تتابعان مرح البراءة .. وجمت ، أحست بنشوة .. "فرح" أضناه الشوق ، تماهت ، صدَّت الرغبة ، انفكت عنه ، نفرت .. ليسا بهيمتين في زريبة ؛ هي تأنف سلوك البهائم .

امتعض "فرح" .. طال الانتظار لأربع سنوات عجاف دون وصال ، عذراء الربيع تعاني ، وفرح العرس ما أقبل ، وظلام الليل يكاد يحوِّل الإنسان إلى بهيمة تسعى إلى الغذاء والماء والمضاجعة .

ضاق به المكان ، ضاق صدره بالأنفاس ، مكبل ، لا حراك ، الإحباط يهده ، يصيِّره ركامًا ، يوهن عقله ، يغشي بصره ..

- "فرح" .. ما بك؟

- أترينني؟!

- بالكاد يا "فرح" .

- لا أكاد أراك .

سعى إلى النافذة ، يتطلع إلى السماء ، غاب القمر ، القمر خاسف ، سماء بلا نجوم ، الظلام يطبق على الأرض ، على البيوت والشوارع والحدائق والطرقات وكل الأنحاء .

دويٌّ بعيد يتوالى :

- ارجع

لم يجب ، ظل واقفًا ، رشقات رصاص تحت النافذة ، عياط ، صراخ ، ثغاء .. تراجُع .

- أين الصندوق الأسود؟!

- ....

علا سجع الحمام ، يسكنه الرعب في مرمى النار ، أعزل في ليل بلا قمر ، أشفق ، خشى إن مشى إلى الشرفة يغيث الحمام أن تخترقه رصاصة ، أن تشطره شظية . مدَّت يدها بالصندوق الأسود :

- صندوق الخراء .. إن بقي به شحن!!

أضاء الشاشة ، انتظر قليلا ، بدأت عيناه تجوبان أخبار التواصل :

- أخبار التواصل تتوالى .
- بل أخبار القطيعة .
- قذيفة عشوائية تشطر امرأة ، تقتل صبية ، تصيب ثلاثة أطفال في شقة منذ أربع دقائق .. التغطية تختفي .. يا لها من شبكة عنكبوتية!!

أصوات في الشارع تتشاجر بلغات غريبة ، تصنّت ، سباب ، شتائم .. استنبط ذلك ، لكن رغم الإنصات ما تناهت إليه ولو عن بعد كلمة عربية .

بالكاد تبين "فريحة" ترتجف ، تلهث في غفلة منه ، تجهش :

- أنا خائفة .

احتواها ، أوسد رأسها صدره ، طوَّق جيدها بذراعه ، يده تربت ، قلبه يحنو ، يفيض هيامًا ، حتى عادتها السكينة ، اكتست دثار الطمأنينة ، غفت .

عبثت أصابعه بمفاتيح الصندوق الأسود ، توهجت الشاشة بدأ التواصل :

"اعترض مسلحون ملثمون سيارة شاب ترافقه زوجته في وضح النهار ، أفتكوا السيارة ، وسُبيت زوجته الصبية غنيمة ، وقُذف به في وسط الطريق ، استاء المارة ، عاد الشاب إلى شقته حيث أطلق على رأسه رصاصة الرحمة ، الواقعة ظهر اليوم" .

"فريحة" تستغرق في نوم عميق ، "فرح" يتردد بين الفضول والتوتر ، لفتته صورة ، مائدة تزدحم بكل أنواع اللحوم وأطباق الأرز والسلاطات والعصائر والفواكه ، تحت الصورة سيدة تتباهى : "غداؤنا اليوم .... إعجاب .. إعجاب .. دق أحرف الحاسوب ، مشاركة : تافهة يلعن ..... أستغفر الله .."

- عبث ... يا بلاد الزهر والحناء!!

تعرَّت "فريحة" حتى الفخذين ، غذَّى الحرمان بعينين نهمتين ، تسامى ، لكل شأن أوان .. غطَّى الجسد المسجى بملاءة ، خشي أن تتعرق فالحر يشتد ، تتطرف شدته رغم اعتدال مناخ فبراير ومشارف عليل هواء الربيع .

هز رأسه : تداخل فصول!!

برر التقلبات عن غير اقتناع ، بدا وميضٌ من غير دوي ، ليلة ليلاء ، هنيهة حتى لحق الدوي بالوميض ، ربما تمطر السماء .

- رعد .. الدوي دوي رعد .. الوميض وميض برق .. السماء لا تمطر .. تقصف الأرض ومن عليها استياء دون قطرة ماء ، تمنع عن الكائنات الحياة ، هي ليست جديرة بالبقاء .

تنبَّه .. "فريحة" تتقلب ، تطيح بالغطاء ، ربما شاب الاستغراق في النوم دوي الرعد ، لكن ، ولله الحمد ما أفاقت ، الإرهاق ، الإحباط نالا منها حد الإعياء .. غطَّاها ، لثم الشفتين واكتفى :

- يا طفلتي الوديعة .. ما خُلقتِ لكل هذا العناء .

أُذِّن للفجر ، الشمس تشرق بعد الفجر ، لكن الفجر ما أعقبه شروق ، غبش ، عقارب ساعة الحائط تحصي الوقت ، ساعة ، غبش .. ساعتان ، غبش ، بدا أنه كسوف!!

خسوف في الليل ، وكسوف في النهار .. هل تمكَّن الظلام من الشمس والقمر وهما بحسبان؟ .. هل يجثم

السواد على صدور العباد ويصير كل اليوم ليلا ، آه يا رباه .. ما الجريرة؟!

وبكى ..

خشي أن يفيق من غفى ، ردد صوته في حلقه ينتحب في غناء :

"وين ما الليل يليِّل"

"يضيق خاطري ونحوس كي العويل"

"ويسيل دمعهن .."

"ويسيل دمعهن ..."

تمالك قواه ، تماسك ، خطا إلى النافذة يتقدمه فضوله ، ما سجع الحمام حين دوى الرعد ، أطلَّ على الشرفة ، الحمامات ما عادت في أوكارها ، غصون ، أعواد ، أعشاش منثورة ، بيض الحمام قشور وسوائل على أطراف الأركان .. حمامتان قتيلتان تدميان على وريقات غصن أخضر ، بدا أن حمامًا نجا ففر نازحا إلى غير مكان ، الشظايا العشوائية لا تستثني كائنا من كان .

غُمَّ عليه ، تراجع إلى الوراء ، تقلبت "فريحة" فوق الكنبة ، تمطت ، تعثر ، أفاقت :

- ألم تنم؟!

- لا .. أبدًا .

- ألم تشرق الشمس؟!

- لا .. أبدًا .

رفعت عينيها إلى ساعة الحائط ، عقارب الساعة تطوي الزمن باعتناء .

- لكن؟؟

- كسوف .. كسوف يا سيدتي .

- ألن تشرق الشمس؟!

- ربما تشرق الشمس غدا .

بنغازي 2015

obeikandl.com

تخاريف الخريف

تـردد قبـل أن يطـرق بـاب بيـت الحـاج "معتـوق" ، التوقيت بين المغرب والعشاء ملائم ، عيـادة الجـار واجـب شرعي ، لكن ، كون الحاج معتـوق رجـلا بـذيء اللـسان أحيانا جعل الجيران يتجنبونه ، يتحاشـون لقـاءه ، إلا أنـه في أحيان أخرى مهذب ، ودود ، خدوم ، طيب المعشر .

- مزاجي!

الحاج معتوق متوعك ، الوعكة الصحية قـد تجـرُّه إلى البذاءة ، وقد تنحو به صوب التهذيب ، في كلتا الحالتين ، لا بد أن يعوده ويتقبل ما يخفيه المزاج .

دق الباب ، استقبله الحاج معتوق فرحًا ، تقدمـه إلى وسط الحوش ، تريث ، التف الحاج معتوق :

- اليوم حر ، تعال نجلس في وسط الحوش .. أبردْ!

تبعه .. نـسمة خفيفـة ، سـجادة ، مخـدات ، سـفرة الشاي ، براد الـشاي علـى موقـد الفحـم ، التلفـاز فـوق طاولة صغيرة مضاء الشاشة ، عرض راقص دون صوت :

- يا حاجَّة عافية .. تعالي .. هذا ولد جارتك مبروكة جاء ..

ثم التفت إليه يحدِّق ، وكأنه يسأله ، أُحرِج ؛ فأجاب :

- لا بأس عليك ، علمت أنك مريض ، جئت أعودك ..

- أهلا .. أهلا .. أنا زي الجن .. يا حاجَّة عافية .. هاتي طُرَّاحيَّات* .

تنبَّه إلى أن الحاج معتوق ليس حاجًّا ، أسبق اسمه باللقب ربما بحكم السن ، ربما درءًا للاحتمالات ، ربما للتوقير ، لكن "معتوق" ارتاح للحاج فصارت كنيته ، ثم ما كنه عافية؟! .. هي أيضا ليست بحاجَّة ، ربما نالت "حاجّة" بالتبعية!!

تأنت الحاجَّة عافية ، تتعمد أحيانا أن تتريث استفزازا ، ضربًا من العصيان ، تستجيب بعد ذلك ، تقدم الخدمة منَّةً ، هذا ما فعلته في حضور ضيف ، كان يجب أن يتخلى عن المناكفة ، جاءت وقد غطت رأسها

* الطراحيَّات : الحشايا .

بالرداء ، فلا تَبين إلا العينان ، حيَّت الضيف ، أحضرت الحشايا :

- تفضل ..

جلسا ، اختفت هي في المطبخ ، سأله الحاج معتوق :

- شاي؟ .. قهوة؟ .. أم أنك لم تتعش؟!

- لا .. لا .. شكرا .. لا أريد شيئًا .

- شاي .. شاي .. الشاي جاهز تقريبًا .. يا حاجَّة عافية تعالي للشاي .. (ملتفتا إليه) : ها .. كيف الدنيا معك؟

- الحمد لله ..

- بلغني أنك تفتش عن بنت ناس للزواج .

فوجئ ، تردد ، خشي أن يكون تورط في زيارة الحاج معتوق ، يستحثه :

- ها ..

- نعم .. نعم .

يصرخ الحاج معتوق :

- يا عافية .. أنا قلت تعالي للشاي .

لم تجبه ، لم تجئ :

- عينك على بنت بالذات؟!

- لا .. لا .. أبدًا .

توغَّل الحاج معتوق في خصوصيته ، تضايق ، مستوى العلاقة والسن لا يبيحان للحاج معتوق أن يفعل .. نزِقٌ هو ، لكن ، الله غالب ..

- لا تحب .. احذر أن تتزوج فتاة تحبها .. فتِّش عن فتاة تحبك أما أنت فلا .. كل النسوان طينة واحدة (ثم بصوت عالٍ مناديًا الحاجَّة عافية) ..

- يا خراء ... الشاي .

استهجن النداء ، اتقد الموقف ، ندم على العبارة ، رنا إلى الشاشة الصغيرة ، فتيات صغيرات جميلات يرقصن شبه عاريات ، طأطأ رأسه تأدبا .. عينا الحاج معتوق مصوبتان ترميان السيقان بوابل من التوق :

- آآه .. آه ..

ثغا الحاج معتوق ، جاءت الحاجَّة عافية ، سمعت ورأت ، تجرأت :

- ارقد في تبنك يا معتوق!

أطفأت التلفاز ، التقطت البرَّاد تضعه بين طاسات الشاي على السفرة ، تحمل السفرة بيد ، تقبض على طرفي الرداء بيد ، فلا يبدو إلا عينان متلصصتان .. تتجه إلى المطبخ .

وجم ، وجف ، تململ الحاج معتوق : حَمَو .. الدنيا حَمَو ..

شاء أن ينتشله من الموقف :

- هذا شأن الخريف .. متقلب ، ثم ، لا بأس عليك .. أستأذنك ..

هبَّ واقفًا ، أقعده الحاج معتوق :

- عليَّ الطلاق .. لا تمش إلا بعد الشاي .

أخرسه يمين السفهاء ، أجبره على الاستسلام ، شرد بفكره بعيدا ، مسبار يغوص في الأعماق لاستجلاء البداية من القاع ..

البداية .. وشت تجاعيد وجه الحاج معتوق بجهد يبذله في اجتثاث البداية من تحت طيات الزمن البعيد ثم أضاءته ابتسامة ، وبدا في العينين حنين وحكي :

- كنت شابًّا أتجوَّل في الغوط عند البئر ، لمحت عافية ، صبية ترد الماء ، اقتربت منها ، كشفتْ عن الوجه ، كانت فاتنة شقية ، ساجلتها ، ساجلتني ، جريئة مقبلة مذهلة ، استغوتني ، قررت أن أتزوج الصبية ، رفض أبي ، رفضت أمي ، تحرشت ، تمنَّعت ، غضبت ، هددت بالانتحار ، أنط في البئر .. الولد جُن ، الولد غاوٍ .. سحرتني الصبية ، توهمت أمي . اقتنع أبي .. دُبِّر الأمر ، تزوجت عافية ..

- وعشت الحُب؟!

- العام الأول فقط ، أشبعت جوعي بالمضاجعة ، أفرغت طاقتي الفوَّارة ، شهية لا تمل ولا تكل إلى أن أنجبت الطفل الأول ، تحوَّلت عني إليه ، أمست حياتنا نمطية مملة ..

تأوه :

- أنجبت ، وأنجبت ، وكان كل وليد بمثابة مسمار يُدق في نعش إرادتي .. لا حول لي ، ولا قوة على الفكاك .. وأنت؟!

هذا الأحمق يشوِّه الحلم ، يتدنى بكل المشاعر الرقيقة إلى ما تحت التحت .

تألق وجه جارته الفتية صبوحا متوقدا ضحوكا يناديه : "تعجَّل فالشوق إليك يضنيني" .. يقول : "لكن العسر يقصيني ، يحبطني ، يبعدني ولا يدنيني" .. شق عليه أن تستحوذ مشاعر اليأس على ذاته ، تمرد ، رفض ، اكتسحت مشاعر الحب كل اليأس ، قذفت بها خارجه ، ارتاح .. "رائع هو الحب ، إشراقه يبشر بغد آخر سعيد" .

هبط به من علو أحلامه عندما شد رسغه وهزَّه :

- رقدت؟! سرحت؟! أين كنت؟!

- غفوت على ما يبدو .. تعوَّدتُ أن أنام مبكرًا .

- وأنت؟! .. أنت لا تريد أن تتحدث .. عرفتك خجولا هادئا .. أقول لك ..

- نعم .. نعم .

- البنت غير الولد .. البنت تخشى أن ينزلق بها الانتظار إلى هاوية العنس فتبور ، أما الولد فلا يضيره الانتظار والتريث ، بل ينضجه ويكسبه

خبرة فيقتني متى شاء واحدة أو أكثر ، البنت تُجبر على الاستخطاب والاستقطاب متى بلغت ، أحيانا بالتواطؤ مع الأم حتى يفع أحد رواد السوق في الفخ .

- ... ...

- ما فات ، فات ، لكن والعياذ بالله ، أرجِّح أحيانًا أن ما كان لم يكن حبًّا ، كان مندافًا أطبق على سذاجتي وشبقي وأسلمني طريًّا إلى بنت متعجِّلة تتصيد رجلاً حتى لا يؤول بها التباطؤ إلى العنس .

رجَّه القول ، زلزل قناعاته ، اكتظ بالاشمئزاز ، اقتلع بدنه من الوطء فانتصب واقفا ، عصف زعزاع ترابي فأصاب عينيه ، احمرتا ، دمعتا ، تقلبات الخريف تعمي الأبصار وتغيِّب الرؤية وتشذ بالعقل فيلوك اللسان أي هراء :

- تصبح على خير ..

- عليَّ الطلاق تقعد .. تشرب الشاي .. يا عافية ..

طريح الحشايا قعيدًا ، ومعتوق يراوح في مرح وكأنه لم يكن يتقيأ ، أوسده مخدة :

- استرح ، يقولون الراحة نصف المؤنة ، ها ها .. يا عافية ..

استطرد يلوك الكلام :

- المرأة هي المرأة .. همُّها المال والمضاجعة ، فإن رقَّ حالك وباد بدنك تراك خردة فتدبر .. احذر أن يطبق عليك المنداف .. لا تثق في المرأة .. المرأة خائنة .. نَمْ ليلاً بعد أن تنام .. اصح باكرًا قبل أن تصحو .. كن يقظًا في كل الأحيان .

قرَّر أن يغادر عنوة ، متوترًا أجال عينيه تبحثان عن نعليه . أدرك معتوق ، نهض ..

- عليَّ الطلاق تقعد .. تشرب الشاي .. سأحضره .. أنا .

خطا إلى المطبخ .. أفاق ، لم يكن يحدِّث نفسه ، كان يدلق عفنه في حضور جاره ، جار على عافية ، تلك الحواء التي أغرته ، هو آدم ، عند البئر بتفاح الصدر الناهد وسحر الكلام فكان ما كان ، ليس كل ما كان سيئًا ، هي أم أولاده ، رفيقة عمره عدة عقود ، احتملت بؤسه في سنوات اليباب ، تجاوزت خياناته في سنوات

الفحولة والشباب ، حرصت على بقاء البيت قائمًا رغم شطحاته ، والبيت بفضل عافية يزدحم بالأولاد والبنات والأحفاد بين آن وآن ، وفي الجمع والأعياد .. والحمد لله .

أجهد الذاكرة يفتش عن مزايا "عافية" فما أضاف ، اكتفى ، تزوَّد بجرأة واقتحم المطبخ تسبقه ابتسامة متوددة ، تناهى إلى وسط الحوش لغطٌ عالٍ لم يتبينه ، مواعين تقع على الأرض ، رائحة الشاي يحترق ، صمت ، نحيب ، نهنهة ، صوت معتوق :

- خلاص .. سماح هذه المرة .. هيا .. الليلة ليلة جمعة والملائكة مجتمعة .

أطبق الصمت ، ساد سكون ، تناهت أصوات مراوغات ، ضحكات خافتة ، بخور يفوح من المطبخ زكيًّا يعبر وسط الحوش إلى حجرة النوم .

نهض ، تسلل ، أدار أكرة الباب في سلاسة ، أطبق الباب في هدوء ، عبَّأ رئتيه بهواء نقي ، انتظمت أنفاسه ، رذاذ مطر ينعشه ، غفر للخريف كل ما أصابه من حر وبرد وتراب ، وأثنى على رذاذ مطره ، وشكر الله على خلاصه .

النافذة مضاءة ، ظهر من وراء لوح الزجاج خيال الجارة ظلاً يتموج ، منكبة هي طوال الليل تذاكر ، تقرأ ، تتفوق ، مرهقة تروِّح ، لو فتحت باب النافذة واستنشقت هواءً نقيًّا نديًّا ستقوى على الإرهاق وتسترد الحيوية ، في هذا الليل .. لا .. لا .. لو صدف أن رآها همَّاز لمَّاز لأشاع عنها ما يشيب الرضيع ، لكن ، لاحقه الحاج معتوق :

"احذر .. المرأة خائنة" .. حكَّ فروة رأسه ، تألق وجه جارته الصبية صبوحًا متوقدًا ضحوكًا يناديه : "تعجَّل فالشوق إليك يضنيني" ..

شاب يلبد عند ارتداد بين بيتين .. يرفع عينيه إلى النافذة ويمد يده عاليًّا يقلِّب كفه بمعنى الاستفسار ، وظل الجارة يبادله الإشارة .

صعق ، الحاج معتوق لم يكن يتقيأ ، كان يلفظ حباب عقيق ، درر ، رجل خبر المرأة على مدى عقود ، يا ترى .. هل يتألق وجه الجارة في التو صبوحًا متوقدًا ضحوكًا ينادي أن لا بد أن تعجل فالشوق إليك يضنيني؟!

- "احذر أن يُطبق عليك المنداف"

تقدم خطوات ، توقف في مواجهة الـ "لا بد" ..

بدا شابًا متناسق الأطراف ، ربما كان وسيمًا ، قد يكون غنيا جاء يقتني امرأة ، لعلَّه جاء يراود ، يتسلى .. قرَّر أن يصعَّد ، أن يواجه :

- مساء الخير .

- مساء النور .

بدا الصوت مألوفًا ، خشي أن يكون أحد فتيان الزنقة ، اقترب منه حتى كادت عيناه أن تلامسا وجهه ، الظلام يخفي الملامح .. فوجئ ، ضحك "اللا بُد" في الارتداد متلحفًا بالظلام ، سأل : ما بك؟

ارتبك ، تأتأ ، سأسأ ، تلعثم ، لم يحر جوابا ، قال بعد أن ارتد خطوة إلى الوراء : - ظننتك سارقا!! ..

ضحك حتى كاد يُسمع :

- سارق؟ .. تأخرت في العودة كنت أشاهد مباراة في المقهى .. الوالد وعر .. أختي كانت تؤمن لي ولوج البيت .

فُتحت النافذة ، بدت الجارة في قفطان النوم ، والشعر المسدول على الكتفين ، متألقة بأضواء الغرفة ، مطلة تنادي أخاها ضحوكة :

– هيَّا بسرعة .. بابا رقد .

امتدت يداها تغلقان النافذة ، وتقول مداعبة :

– تصبح على خير يا ولد جيراننا!

مشدوها : تصبحين على خير ..

ثم مستدركا .. : تصبح على خير يا خويا!

تباين وحدة المشاعر المتلاطمة أصابا بدنه بالوهم ، دوَّامة التلاحق أدخنت عينيه ، لكن إطلالة الجارة أذكت فيه التوق إلى الحب ، أحيت الأمل ، ظهرت الأعماق في قيء الحاج معتوق .. دفعت به نقيًّا جدلا إلى الغد الحلم يرنو بعينين جليتين إلى القادم . تمدَّد على فراشه ، توسَّد مخدة ، وضع أخرى على عينيه ، ما لبث أن استغرق في النوم كما طفل أرضعته أمه ، وهدهدته فنام قرير العين .

بنغازي 2014 م

النادل مرزوق

الشارع عريض يعجُّ بالمحال التجارية والمطاعم والمراقص والمقاهي والحانات والأضواء المتلألئة والنهود النافرة المتحررة من المشدَّات ، والخدود المتوردة حمرة نبيذية خالصة ، والأفخاذ المكتنزة المصقولة الناعمة ، والسيقان المنتصبة وقوفًا وحين خطوها ، منحوتة بيديّ فنَّان مبدع ذي إعجاز ، والعيون الجريئة ذات الجفون البنفسجية تكاد من فرط الوله تقول خذوني ..

الشارع المتسع يضجّ بالموسيقى الصاخبة المتنوعة الثقافات المتعددة الإيقاعات تتداخل ومزامير السيارات ودقات الطبول ، وتخترق حاجز الصوت فتصيب طبلتي الأذن مباشرة ..

الشارع مكتظ ممتد يتدفق إيقاعًا شبابيًّا سامق الخطوة برقي الحركة تضطره العفوية أحيانا إلى احتكاك ، فتلامس ناعم بين ذكر وأنثى يؤدي تلقائيًّا إلى الاعتذار الحضاري اللبق ، ثم التعارف ، فالمشارب والأهواء .

ضربة كتف كادت تطوِّحني ، جعلتني أترنَّح وأستدير إلى الاتجاه المعاكس وأتماسك رغم عنف التوجيه الإجباري ، فلا أقع في نهر الشارع من على الرصيف ، أغضب وألعن سوء الحظ القرين إذ فيما ينعم ذكور بالتلامس الأنثوي الناعم يدق كتفي بكتف شاب مخمور بدا جلفًا عدوانيًّا قصيرًا مربوع القامة حافي القدمين يرتدي سروالاً قصيرًا وقميصًا أحمر غير مزرر ، يخزرني بعينين تورد بياضهما ويطوِّح في عصبية بشعر طال فتهدَّل على الكتفين .. تراجعت عن غضبي وداريت وجعي واستيائي واعتذرت في أدب جم لعلَّه وشى بهويتي ؛ فصرخ الشاب في وجهي :

- انتبه يا غريب!!

وصفي بالغريب أحدث وجعًا أشدَّ إيلامًا من وجع كتفي ، إذ نكأ جرحًا ظلَّ يلازمني في الحِل والترحال عقودًا من الزمن ، لكنَّه على أية حال أهون من الوجع الذي يحدثه الشعور بالغربة في الوطن فتجرعته وجعًا محتملاً وإن أطبق على أنفاسي ألمٌ مبرح استدعت تداعياته ذلك الإحساس العميق بالغربة ؛ فحزنت حتى حدود البكاء في شارع الفرح .

توجهت إجباريًّا إذن بضربة كتف نحو الفندق . تحاملت أجرُّ الخطى وأنوء بالخذلان والحسرة ، فالليل في أوله ، وليل بيروت ليس كأي ليل ، والنفس اللَّوامة تتحجج برمق من شباب ، وما يفوت يفوت ، لكن ، يا ما فات وكل ما هو آتٍ آت .

ما هو آت دون شك هو ركن القهوة في الفندق حيث التقى النادل مرزوق ذا الابتسامة العريضة والوجه السمح والاستقبال الحميم والحديث الودود ، أجد في كنفه تسرية تُجلِّي ضيق الخاطر وتزيح الهموم .

بداية معرفتي بالنادل مرزوق كانت في ركن القهوة بالفندق حيث حدث أن وقف قبالتي رجل وجيه ببذلة زرقاء جديدة ورابطة عنق حمراء وقميص أقل زرقة من لون البذلة ، يحوطه صديري لامع ، ينتعل حذاءً أسود بكعب عال ، شعر مصفوف بعناية ممهور بشيب عند الصدغين ، عينان متألقتان ، ابتسامة وقورة كشفت عن أسنان عفية ، شوَّر بيمناه ، قال :

- تفضل .

لوهلة اعتقدت أن الرجل الوجيه صحافيًّا ، كاتبًا ، محاميًّا ، طبيبًا ، أو حتى ربما وزيرًا ، لكنه أخطأ ، فلست

أنا المقصود بالتفضل ، خشيت أن يكون الرجل ضابط شرطة أو ما شابه ، والدليل أنه شوَّر بيده مع "تفضل" التي تسبق في العادة ، وبكل تهذبب ، دعوتك إلى المجهول .. اعتراني خوف مبرر فباسمت الرجل الوجيه في حذر شديد تملقا ، وإن كنت أدرك أن التملق لا يُجدي إذا كان الرجل ما شابه ..

نطقت : أنا؟!

قال مقبلا : أهلاً .. تساءل : من أين؟

رأيت أنه من الحكمة ألا أفصح .. همهمت : أنا ...

- بالتأكيد .. بالتأكيد ..

أدرك الرجل الوجيه ، أضاف :

- قهوة أم شاي؟ .. أنت مدخن والقهوة تناسبك؟!

يا للفراسة ، سخرت من توجساتي ، أجبته فرحا :

- نعم .. قهوة وسط وكوب ماء بارد .

- عيوني .

عندما عاد النادل الوجيه ، وعلى كفه صينية القهوة ، وعلى وجهه ابتسامة فاقعة خجلة من وجاهته بحذاء قيافتي ، ونهضتُ كي أتناول منه الصينية الفضية ،

لكن الرجل فوجئ وامتنع ، وضع الصينية على الطاولة الصغيرة فيما احتفظ ببقايا الابتسامة على صفحة وجهه :

- أي خدمة؟

- لا شكرا .

- سياحة؟

- علاج .

- (يخزي العين) تبدو شابا عفيًّا ..

رغم كذبه ، ارتحت لقوله ، أضاف :

- كم عمرك؟

- سبعون ما بين ربيع وخريف .

- (يخزي العين) .. لا أعطيك أكثر من خمسين ربيعًا!

- أضف إلى خمسينك عشرين خريفًا .

استوعب القول ، تضاحكنا ، تساءل :

- ما مرضك؟

شعرت بضيق شديد ، أكره الحديث في مسائل العمر والمرض ، ثم أنَّ إلحاحه أبدى حديثه كما لو كان استجوابا ، لم أجب .. ناداه نزيل آخر فهرع إليه ..

ارتشفت قهوتي على مهل ، دخنت سيجارتي بشغف ، راق مزاجي ، تبينت الوقت من ساعة يدي ، الليل ما زال في أوله .. ناوشني رمق الشباب ، أزعجني أن أنهض إلى محبسي حيث الفراش والمخدات والمنامة والشاشة الصغيرة وأخبار الربيع العربي والاكتئاب ، ارتخيت على الكرسي الوثير ، وسنت ، أيقظني صوت النادل يسأل في تباسط :

- ما مرضك؟ لم تجبني يا ختيار ..

باسما أجبت : فحص .. فحص دوري .. وصيانة عامة .

يقف صامتا مترقبا ، عيناه تلحان أن أبوح بالتفاصيل ، تفاديت العينين المصوبتين نحوي ، نهضت :

- الحساب .

- خليه علينا .

- لا لا .. شكرا .. كم الحساب؟

مددت يدي له بالنقود :

- عشرة آلاف فقط .

نفحته فوقها ، وأوليته ظهري لاحقني صوته في تودد سياحي :

- ليلتك سعيدة .

تمتمت مغادرا : - ربما .

النادل مرزوق صار بعد ذلك نديمي إذ على المرء في الغربة أن يقبل بالمتاح ، ثم أن توالي اللقاءات والأحاديث ما بين وشوشة وجهر أوصلنا إلى صحبة تدنو من الصداقة أجد فيها تسرية وأنس .

صار اللجوء إلى ركن القهوة عادة مسلية ممتعة ، ألتقي النادل مرزوق ، لا يضطر أحيانا إلى سؤالي ، فقط :

- حبيب قلبي!

يومئ بيده أو برأسه ، يختفي خلف الوجاق ، ثم يجيء حاملا فنجان القهوة وقد خبر قهوتي ، أباسمه ، يبدو مرهقًا ، ملامح وجهي تنبئ بذلك ، أسأله :

- كيف أنت اليوم؟

- متعب .

- لا بأس .

- .. ..

- هه؟!

- أعمل نوبتين : صباحًا في مقهى ، ومساءً هنا كما ترى!

- هذا إرهاق .. إن ..

انفلت منصرفًا عن حديثي بعد أن دق جرس هاتفه المحمول لاحقته عيناي ، انحناءة ظهره ، تقوس ركبتيه ، بطء خطوه ، تشي بكبر سنه ، تمعنت ، تأثرت ، ما كنت فطنت إلى هرمه ، الرجل الذي بدا لي ذات يوم وجيهًا عفيًّا ليس إلا نادلا تعيسًا ، المظهر لا ينبئ عن المخبر ، استعجلت عودته بابتسامة ، بإيماءة ، لكنه يتباطأ ، وكأنه شاء أن يشاكس فضولي .

تضايقت فكدت أغادر المقهى لكنه جاء يجر قدميه ، وقف على بعد خطوة مني ، بدا حزينًا منكسرًا ، سألته :

- ما بك؟

وجم ، خزرته ، أستحثه ، فحَّ هامسًا :

- الجيران نقلوا أم البنين إلى المشفى .

أم البنين هي رفيقة النادل مرزوق ، امرأة مقعدة على كرسي بعجل تمضي الأيام وحيدة وإياه في بيت كان يضج بالصحة والحيوية والأمل حتى غادره البنون - يقول - وقد

انصرف كلٌّ إلى شأنه مهاجرًا أو متاجرًا أو مهمومًا بشؤون دنياه في مدينة أخرى .

دمعت عيناه عندما غص بالكلمات عن انقطاع التواصل بأولاده وبناته إلا فيما ندر ، والأم القابعة في البيت مريضة عاجزة وحيدة وعن مساوئ العقوق بالوالدين .

تحسست ورقة بمائة ألف دسستها في كفه ، تمنَّع في خجل ؛ فأطبقت أصابع يده على الورقة .

- لم أكن أقصد!

- هذه مني لأم البنين .. شفاها الله .

كفكف دمعه ، وهبَّ ملبيًا نداء زبون مخمور ، وقد أضاءت وجهه ابتسامة سياحية ذات مدلول :

- يا هلا .. مرحبا سيدي .. أمرك؟

- بيرة .

- البيرة في الحانة سيدي .

- بيرة .. يا .. أعـــــــــ ..

أعطاف الزبون المخمور كانت تفوح برائحة النفط ، البدن مترهلٌ شحمًا ولحمًا ، الرسغان كما الأصابع مسوَّرة

بالسلاسل الذهبية والخواتم ذات الأحجار اللازوردية وساعة ثمينة مرصعة .. ومرزوق التعيس خانع خاضع مسبل اليدين والعينين في حضرة رزمة النقود الخضراء المحشوة في جيب القميص الحريري ، لا يقوى على مواجهة الزبون الطاغية إلا بالصبر .

- لماذا يا مرزوق؟

- الزبون دائمًا على حق .

- حتى لو كان مخمورًا بذيئًا .

- لقمة العيش .

علا شخير الزبون المخمور .. توقفه بين حين وحين حشرجة وسعال ، ينفث لعابًا ومخاطًا يبلِّل شفتيه المتهدلتين ، يلوِّث ذقنه ورقبته وصدره ، تبلِّل سرواله كما لو أن إبريق ماء سُكب عليه حتى أغرق حذاءه والسجادة الفاخرة ..

سدَّ مرزوق أنفه بإبهامه وسبابته متقيًا رائحة البول الحادة ، جاء اثنان من موظفي الاستقبال يحملانه إلى جناحه في طابق الرجال المهمِّين جدا .

خرجتُ أتنفس هواءً نقيًّا ، دون أن أنتبه وجدتني في نهاية الشارع حيث تضاءلت الأضواء والأصداء والخطوات ، و وربت الحانات والمراقص ؛ فقد بلغت حالة الساهرين مشارف الابتغاء .

دكان ساعاتي متوهج الأضواء ، دنوت فطالعتني منبهات وضعت في نافذة العرض القائمة عند مدخل الدكان ، تذكرت شكوى مرزوق من عدم وجود منبه يوقظه فيوفق بين نوبتي العمل والرفيقة المعاقة ، تقدمت كي أبتاع منبهًا أهديه إيَّاه ، أوقفني قول صاحبي مرزوق ..

- كم تقاضى منك سائق سيارة الأجرة؟

- خمسين ألفًا .

- نصابون .. الأجرة من المطار حتى الفندق لا تتعدى الثلاثين ألفًا .. أوساط السياحة مليئة بالنصَّابين .. احذر النصابين حتى لا تُنهب يا صاحبي .

صدق مرزوق ، لا بد أن أساوم البائع في سعر المنبه الذي أختاره ، وأعرض نصف السعر حتى لا أتعرض للنصب ، لكنني سأشتري منبهًا وأقدمه هدية ذات دلالات

لصاحبي مرزوق ، فالرجل يستحق التحية والمنبه سيذكره بي كلما دق ، ولعلَّ هذا كل ما يبقى بين إنسان وآخر ؛ ذكرى الأيام الطيبة والمودة الخالصة .

دُفعتُ بقوة ؛ فتعثرت في درج الحانة حتى كادت تقع وتوقعني ، صبية يافعة تترنح ، عارية الصدر والكتفين والساقين ، تبدو بوجه وعينين ذابلتين أضناهما السهر جميلتين ، أسال العرق كحلهما ؛ فامتزج بأحمر خديها وشفتيها ، خِلتُها طفلاً مهرجًا أنهى عرضًا مسرحيًّا في التو :

- تضيِّفني يا عمو!

لم تطاوعني الكلمات ، أجبت بعد تملٍّ : - لستُ عمَّ أحد .

مرقت إلى وسط الدكان هاربًا من احتمالات النصب فأي "عمو" وأيَّة ضيافة لا سيما وأن صاحبي مرزوق حذَّرني من المحتالين والنصابين ، وإن وسوس ما بقي من رمق بالنصب اللذيذ .

البائع يباسمني متوددا ، وقد نصب المنداف :

- نعم؟

- منبه .. هات ما عندك .. أرني .

عرض مجموعة من المنبِّهات متعددة المزايا والألوان والأحجام ، جادلته في الأسعار كثيرا ، نفسي النضالي كان أطول ، انصاع أخيرًا وباعني المنبه الذي اخترت بالسعر الذي عرضت ، التقطت المنبه في كيس زاهٍ بالألوان ، وغادرت مزهوًا بالتصالح مع نفسي الوثابة إلى الرغبات ، تدغدغني مشاعر الوفاء لصاحبي مرزوق ، سيذكرني دائمًا ، سيحدِّث عنِّي رفيقته المقعدة وأولاده وبناته وربما أصحابه أيضًا .

- أناس طيبون!

سيطال الثناء بني وطني ، لكن صفة الطيبة لم ترق لي ، الطيبة تعني في حين السذاجة ، وتعني الغباء في أحيان .

- أناس خيرون .

- نعم خيرون .. خيرون أفضل .

هرعتُ إلى الفندق إذ يجب أن ألحق صاحبي مرزوق قبل نهاية دوامه ، وإلا فإنني لن ألقاه ، غدًا أغادر وغدًا أيضا يوم عطلته فلا يجيء فقد أخبرني أنه يخصص يوم

عطلته بالكامل للبيت ورفيقة عمره ، الحمَّام الأسبوعي ، مشط الشعر ، المداعبة والترويح .

عندما وصلت لم يكن مرزوق موجودًا ، ركن القهوة خاو ، المكان كئيب من دون مرزوق ، الوقت ما زال باكرًا ، سيجيء مرزوق ، ربما مضى إلى شأن ما يقضيه ويعود ، مرزوق حريص على وداعي بالتأكيد .. ارتميت على الكرسي الوثير ، المنبه في حجري ، لم أضع في جوفه نضائد ، لم أفعل ، إن فعلت سيعتقد مرزوق أنني أهديه منبهًا مستعملاً ، لا عيب .. تأخَّر مرزوق ، نشوة الفرح تتلاشى ، ربما أصاب رفيقته مكروه ، عجوز مقعدة ، الاحتمال وارد ، أعوذ بالله من شر الوسواس الخناس ، لا أطيق تصور حياة مرزوق في غياب رفيقته .

- تفضل ..

شاب وسيم ، بدا مرحًا لكنه كان على عجل ، عيناه تستحثاني :

- ألم تر مرزوق؟!

- مرزوق؟! النادل العجوز .. الختيار .. غير؟

- نعم .

- غادر وغدا عطلته .

الشاب عجول ، لا بد أن أداوي وقع الخبر بفنجان قهوة سادة ولفافة .. - قهوة سادة وكوب ماء .

تحسست المنبه في حجري .. سأترك المنبه في "الاستقبال" مع كلمة رقيقة ، خشيت أن يقتنيه نصَّاب سارق ، مرزوق حذَّرني :

- ما أدراني أي موظف استقبال ألقى .

عاد الشاب ووقف باسما وكأنه يعتذر على ما أبداه في استعجال ، استبقيته .

- لن يجيء مرزوق إلا بعد غد؟!

- نعم .. أي خدمة نقوم بها عنه .

- لا .. لا .. شكرا .

- أؤكد أن مرزوق العازب غدا عطلته .

- العازب؟!!

- نعم .. العازب ليس لقبه بل كنيته ذلك لأن "عمو" مرزوق خثير ولم يتزوج .

- نعم؟! أي والله .

ابتلعت فنجان القهوة في جرعة واحدة ، القهوة مُرَّة وحامية ، شربت كوب ماء بارد كي أزيل المرارة ، ظل

الحلق متيبسًا ، وقد جفَّ ريقي ، مددت يدي بعشرة آلاف للنادل الشاب .. سألني :

- أنت نزيل هنا؟

- نعم .

- ركن القهوة يقدم القهوة مجانا للنزلاء .

- كيف؟

- ضيافة .

وقفت متخاذلاً ، أشدُّ على المنبه بقوة ، أسعى إلى محبسي ، منتشيا بفراستي .

بيروت 2012

obeikandl.com

ولد سوق

سمير شابٌ متميز وفتى غير عادي ، يخطئ في الكتابة ولا يميل إلى القراءة رغم حيازته شهادة التعليم الأساسي عن جدارة وتمكن ، إذ اقتضى اقتناؤه للمؤهل إعادة كل مرحلة من المراحل لدورتين أو أكثر فاستفاد من التكرار واعتبر على حد القول من الشطار ، وهو أيضًا ، وسيم ذو وجه صبوح بعينين خضراوين يتقن فن التلاعب بهما ما بين جحوظ تعبيراً عن دهشة ، أو رنو إشعارًا بتقرب ، أو إغماض استغراقاً في تفكير ، ضحوك إذا لم يستدع الموقف الضحك ، عبوس إذا شاء أن يفعل ، متوجس إذا ارتاب ، طفل إذا حاول ثم خاب ، يُعزي تدفقه إلى حيوية العشرينيات وحركته الدائبة إلى فورة الشباب .

يتمتع سمير بلياقة بدنية مُلفتة ، لكنه أملط لدن البدن موشوم الذقن بخطين صغيرين متوازيين ، مخروم شحمة الأذن اليمنى حيث كان شُبك قرطٌ بعد مولده بأيام شأن الوشم تمويهًا واتقاءً للحسد والعيون التي تصيب ولا تخيب ، والعياذ بالله .

أمه بالغت في التحوط فكانت تلبسه قفاطين البنات وتشيع أن المولود الوافد بعد ست بنات ، بنت سُمِّيت "سميرة" ، تخفيه في دار النوم كي تحميه من نظرات الجارات الفضوليات ، وتقيه تقلبات الطقس وتدس تحت مخدته مصحفاً .. تدفع كيد الجان والشيطان وكذا الإنسان ، وتبخِّره في ليله ونهاره ببخور الفاسوخ الذي يؤكد العارفون أنه يفسخ كل عمل رديء ، حتى حدث أن اختنق المولود الوافد ذات ليل فامتنعت الأم مذعورة عن الفاسوخ وغير الفاسوخ ، إذ لو حدث ومات سمير ستأتي ضُرة تقاسمها الزوج والبيت وتنجب الولد تلو الولد وتستحوذ على كل شيء ، هذا ، إن لم يشتطَّ الزوج فيطلِّق ، أو تشترط الضُرة الانفراد بالرجل فيُجبر على أبغض الحلال خاصة إذا كانت الضُرة هي "زينب" الأرملة المتربصة في البيت المجاور متكفلة بولدين فُقد أبوهما في تشاد ، ويعولهما وإيَّاها والدها الهَرِم رقيق الحال دون عون من أحد ، رغم أن الإذاعة تصف الفقيد بالشهيد .

هي تعي جيداً ألاعيب الصبايا وتحرشات النسوان ، و"زينب" التي كبر ولداها تتوق إلى رجل يتولاها هي

وولديها ، وقد احتد هذا التوق من زينب بعد أن توالى حجز والدها الهَرِم في العناية الفائقة بالمستشفى ، وأشيع ممازحة أنه يقبض على بطاقة الصعود إلى الرفيق الأعلى ، وأن الأمر محكوم بجدول الرحلات ليس إلا ؛ فتمادت "زينب" في الألاعيب المغلفة بالعفوية ، وأكثرت من التحرشات البائنة المغزى ، وثابرت على الزيارات المريبة حتى حدث ذات يوم أن جاءت متلحفة بعباءة فوق قميص داخلي أحمر شفاف متعلِّلة بأن الدنيا حمو ، وتعرَّضت ساقاها إلى التعري عندما انتفضت مفزوعة ، وقد انتصب الجار فجأة يخزرها بعينين نهمتين إلى ولد إذ حاشاه أن تعزي خزرته إلى أبعد من الخلف ، ثم أنها خزرة واحدة مشروعة ، وإن طالت بحكم قصر النظر .

- بروع صبايا!

أكدت الزوجة المستاءة لبناتها ، وتقرر أن يُحكم إغلاق باب البيت وألاَّ يفتح مهما توالت طرقات أو احتدت .

- ما وراء الباب أحباب !

"سمير" يجب أن ينمو عفيًّا قويًّا ، ويملأ البيت حياة

وبهجة ويشبع نهم الزوج إلى خلف ذكر فلا يطبق فخ "زينب" أو غير زينب على أبي البنات ، ولا يهد البيت كائن من كان .

ترعرع "سمير" بين أخواته البنات وأمه ، واستقى حركات المجتمع الأنثوي وسكناته وراقت له نعومة الملاطفة والمداعبة واستطاب الدلال ، وتلذذ بتسابق الأخوات والأم إلى تلبية الطلبات حتى حد الإذلال ، وتسلَّح بالبكاء حيناً وبالتمارض حيناً آخر ، وبتعكر المزاج في كل الأحيان ، معزولاً لا يتخطى عتبة البيت إلى الشارع خوفاً عليه من أطفال الجيران والصقيع والحمو ولفحات الشمس ، وظلَّ كذلك حتى بلغ مشارف مبلغ الرجال .

بعد البلوغ وانفكاك "سمير" عن البيئة الأنثوية وتوغله في مجتمع الذكور ، صار يتعرض للمعاكسات والمضايقات غير اللائقة حتى أنه كان يُنادى بـ "سميرة" ، ويُلاطف كأنثى من مراهقين يفورون بطاقات جنسية مكبوتة ، فانزوى في البيت لا يبرحه وسط أخواته وأمه ، لكن الغلَّ أوغر صدره والقهر فجَّر حقده ووطأة العزلة أتت على تردده في ولوج الشارع فحزم أمره .

بدأ مواجهة مجتمع الذكور باستنبات شعر وجهه حلاقةً ، رغم كونه أملط ، لكن شعر وجهه لم ينبت رغم تكرار المحاولة بينما نبت شاربه ونما فلجأ إلى طبيب أخبره بأنه أمرد لا يطلع الشعر في وجهه إلا على ظاهر الشفة العليا ، أما مرجع الحالة فخلل في الهرمونات لا يقوَّم ، وعندما هملت عيناه الخضراوان دمعاً واساه الطبيب بأن يفوّض الأمر لله القادر على تقويم كل خلل إذا شاء وليس سواه .

- "سمير" رجل يقف على شنبه الصقر!

تقول أمه متباهية في اللَّمات بين الصبايا ، وتبالغ في التباهي حين وجود "زينب" الأرملة المتربصة بالزوج الطامح إلى بيت يعج بالذكور :

- مُراح البنات خال!

يردد الزوج لماماً ، لكنه يلين ويستكين رغم وخز شكوكه بشأن ذكورة "سمير" وما يوسوس به الشيطان من متعة حسية ينالها لو اقتنى "زينب" زوجة شرعية .

ما ظلَّ يؤرق "سمير" هو ساقاه اللدنان وصدره النافر فظل لا يؤم الشواطئ وإن فعل لا يتعرى ؛ إذ تلتهم عيون

المراهقين ساقيه وصدره بنظرات بذيئة لا يحول دونها حائل حتى شنبه الكث القادر على استضافة الصقور ، وفق أمه ، وخطر له أن ينتظم في تمرينات كمال الأجسام ، فالرياضة يمكن أن تقوِّم الجسد وتصيِّر اللحم الناعم الرطب عضلات قوية مفتولة تذكي في "سمير" شعوراً أكيدًا بالرجولة والفتوة .

واظب "سمير" على تمرينات رياضية يومية عنيفة فتصلبت عضلات الذراعين وتكور الزندان وضمر الصدر وانكمش الردفان وتيبس اللحم اللدن عند الفخذين والساقين ، وواجه صعوبة في الحركة والمشي إثر شدٍّ ومدٍّ في الجلد إلا أن جلسات التدليك وأصابع حرِّيف تجوس الجسد منزلقة بمراهم ودهون أصابت منه الداء ، وتحقق له المتعة والشفاء ، ولأنه استطاب جلسات التدليك صارت له عادة كلما الأمر اقتضى .

تعددت تحرشات الأنداد ولاحقته تقولاتهم حتى وسط الحوش بين أخواته وأمه ، وبدا في كل العيون جباناً غير مهاب ، يتجرأون على عِرضه دون أن يرد ولو بكلمة ، يكتفي بأن يُغمض عينيه ، لكنه يعجز عن أن

يصمَّ أذنيه ، يقاوم بالصمت ولا يغضب حتى صار يُعرف بأنه : "خي خواته"!

بمعنى أنه ليس رجلاً ولا يختلف عن أخواته البنات في شيء ، تراقبه عينا أبيه بانكسار وإذعان ، وتلوذ أخواته بإحدى الحجرات كلما حضر فراراً من كلمة تخدش الحياء إلى أن رمت الجارة "زينب" بشظية أصابت من أمه القلب وألهبت سُعر الغضب في كل أنحاء البيت الأنثوي :

- "سمير" رجل وإلا لا؟!

تتساءل "زينب" شماتة وازدراءً ، فلو لاذ بها الزوج المغبون زوجة لأنجبت له متواليات من الذكور ، وليس مخنثاً واحداً كما هو الحال .

توشوش "زينب" أحيانًا في أذن جارة ، وتهمس الجارة في أذن الأم ليس نميمةً أو ازدراءً أو ربما وشاية لكنه شغف الصبايا بإظهار المخفي وإعلان المدسوس في عشيات الفراغ والخواء ، حتى استاءت عجوز تقية حاجَّة مواظبة على الصلاة وصيام الاثنين والخميس عليمة بشرع الله :

- النميمة حرام شرعاً .

أجيبت :

- غير القادر على حفظ سره لا يلوم الآخر على البوح به .

قرَّر "سمير" أخيراً أن يغضب ، لكنه رجَّح العقل ، ورأى أن يتعامل مع الأمر كمشكلة وخلُص إلى قرار محفوف بالمغامرة .

تربَّص بمهاب أعتى أنداده وأشدهم عنفاً وقوة وأكثرهم تحرشاً به قولاً وفعلاً حتى اختلى به ذات مغرب عند ناصية الشارع فبادره مهاب مداعباً تمتد يده إلى صدره تقرص منه الثدي فرحاً بالخلوة والظلام ، لكن "سمير" ضربه فجأة بقضيب حديد كان دسه وراء ظهره فأصاب منه الرأس ، ووقع مهاب فاقداً الوعي ينزف ، وفجَّر الفعل الغضب في "سمير" وتوالت ضرباته عنيفة شديدة .. وعندما هرع الأنداد وتحلَّقوا حول سمير يصدونه ، فوجئوا بقوة خارقة تنال منهم حتى انفضوا من حوله وتجمع الجيران يستدعون الشرطة والإسعاف لا يكادون يستوعبون الواقعة ولا يصدقون ما يحدث .

- "سمير" استرجل!

أمضى مهاب ثلاثة أيام مصابًا ، قضاها "سمير" موقوفاً وقُيِّدت الواقعة في المحضر مشاجرة بين اثنين ، وتولى شيوخ شأن الصلح في زحمة قصاع الأرز واللحم الوطني والتجشآت ، والقول بأن : "من عفى وأصلح فأجره على الله" ، والمصافحة والمعانقة وقراءة سورة الفاتحة في ليلة جمعة مباركة تعبق بالتصافي والوئام .. وبدا كأن شيئًا لم يحدث بين الأنداد ، لكن الشيء كان قد حدث وساء وتحوَّل "سمير" اللدن المهادن إلى مشاكس شرس يخشاه الشباب ، مهيب الجانب حتى من مهاب الذي ينسل مغادراً الناصية إذا ما بان "سمير" بوجه عابس وعينين تخلتا عن الرنو والإغماض يغرزهما شزرا في عينيّ هذا ويخزر بهما ذاك ، يتحسس شاربه الكث ويفرد قامته ويدق الأرض بحذاء ذي كعب عال ، وكأنما يشاء أن يخرق الأرض وينثر الهيبة ثم يمشي فرحًا إلى البيت ليلاقي الأخوات والأم مزهوات متباهيات ؛ نكاية في "زينب" الأرملة المتربصة خلف الباب الموارب في البيت المقابل ، فرِحات بالتحول الذي طرأ ، مستبشرات بقادم الأيام .

– يا ريتك رجل بنتي!

خاطب أحد التجار "سمير" معجباً ومداعباً ؛ فغمرت وجه "سمير" ابتسامة ذات دلالة ورنا بالعينين الخضراوين إلى التاجر يُقيِّم الكنز ثم مضى مكتفيًا بابتسامة ورنو دون أن ينطق بكلمة .

- خجول .. شاب مؤدب .

لاحقته كلمات التاجر ، علق أحد الخبثاء :

- لكن "سمير" لا يمكن أن يكون رجل ابنتك!

فوجئ التاجر :

- كيف؟! .. لماذا؟!

أجاب الرجل :

- أنت رجل ابنتك .. "سمير" لن يكون أكثر من زوج .

تضاحك التاجر ، وتزحزح ينوء بوزنه وبثقل العوانس اللُبَّد في البيت يائسات محبطات ، وقد ترهلت منهن الأجساد وذوت فيهن العيون حتى تكاد تبدو غائرات ، وتحرك التاجر مغادراً ملاطفاً :

- إن شاء الله خير .

تفنَّن "سمير" في اختلاق المصادفات المؤدية إلى تبادل التحايا والابتسامات حتى استوقفه التاجر ذات يوم ودعاه إلى متجره الكبير في السوق .. تبعه "سمير" خجولاً متعثراً حتى وطأت قدماه المتجر حيث قبع جالسًا لا يرفع عينيه عن قدميه تأدباً ؛ مما جعل التاجر يهمس في أذن شريكه مزهوًّا :

- خجول .. ولد ناس .
- حاجتنا إلى ولد سوق .

أجاب الشريك المخضرم ، انصرف عنه التاجر مخاطبًا "سمير" :

- أتدرس يا "سمير"؟
- لا .
- لماذا يا "سمير"؟
- خريجو الجامعات يؤلون إلى النواصي دون عمل ، اختصرت المشوار إلى البطالة .

دغدغ قول "سمير" أميَّة التاجر ؛ فأزاح طاقيته إلى الخلف وحكَّ شعر رأسه :

- لماذا لا تعمل في التجارة؟

خنقت "سمير" العبرة ، وأخفى شفته العليا تحت شفته السفلى ، وبدت عيناه الخضراوان نديتين ، وطأطأ رأسه ، وحشرج بصوت يكاد يسمع :

- الفقر .. الفقر .. يا عمي!

أجاد "سمير" رسم المشهد وصياغة الموقف بامتياز واجتاز الاختبار بتفوق ، واستدر تعاطف التاجر بغزارة :

- أعرض عليك أن تعمل معي بمرتب مجزٍ يا ولدي .

قال التاجر فيما امتدت يده بمنديل ورقي ثم بكوب ماء ، لكن "سمير" لم يُجب .. ظل صامتاً يرنو بالعينين الخضراوين في حيرة أقلقت التاجر :

- ها .. ما رأيك؟

- طموح أنا يا عمي .. المرتب يظل محدوداً .

أجاب "سمير" في خجل ، استطاب الثري الجواب ، نهض سمير وكأنما ينتوي المغادرة ، استوقفه التاجر :

- ماذا تريد؟

- إنني خجل يا عمي .

- نسبة من أرباح المبيعات .. أنا موافق .

بكى "سمير" فرحاً ، وانكب على رأس التاجر يقبِّله ، واغرورقت عينا التاجر بالدموع سروراً بالولد الواعد ، وربَّت بكف يمناه خد سمير يلاطفه ، وبدا الرضى على الوجهين سمحاً مطمئناً ، لكن المشهد أقلق الشريك المتوجس فانصرف ، كذلك انصرف "سمير" :

- شكراً يا عمي .
- عفواً يا ولدي .. ها .. متى تبدأ؟
- حالا يا عمي .. لكن
- لكن؟!
- لا بد أن أخبر أبي .

هزَّ التاجر رأسه باسمًا بما يعني الموافقة والحبور ، وتمتم :

- ولد عائلة .. يعرف الأصول .

أخبر "سمير" الأب ، وتناهى القول إلى الأم والأخوات ، وتعالت زغاريد شاءها الأب خافتة لا تثير انتباها ولا تستدعي فضولاً يؤدي بالجيران إلى التساؤل والتداول في شأن لا يرقى إلى مستوى الزغاريد باستثناء "زينب" التي يدغدغ فيه حضورها شيئًا ما في ثنايا الخاطر ويثير فيه النشوة والإقبال على الحياة .

- ليتك كنت مؤهلاً فالتحقت بوظيفة حكومية ، هي أشرف .

- المؤهلات لا تؤدي إلا إلى النواصي والضياع ، ثم إني لا أعمل معه!

- من؟!

ارتبك "سمير" إذ دلق العبارة دون وعي منه أو إدراك حتى شك أن يكون القائل ، ظل صامتًا لا يجيب واعتبر صمته ترددًا في البوح بأمر خطير أقلق الأم والأخوات والأب الذي ألحَّ :

- من ذاك الذي لن تعمل معه؟!

أجاب "سمير" بصوت خفيض :

- هو .. هو ..

قول صاعق أرعب الأسرة لكنه أثار في الأعماق مشاعر الفرح والزهو والتباهي رغم إطباق الخوف على الصدور والأنفاس وأفرج عن قول إحدى الأخوات همسا :

- "سمير" معارض!

هلع الأب ، جحظت عيناه ، تصبب عرقا ، يبس ريقه ، خارت ركبتاه ، دلق كوبًا من الماء البارد في جوفه ، وآخر على رأسه ووجهه ، صرخ :

- اسمع يا ولد .. فُكِّنا من السياسة .

أجاب "سمير" :

- أيَّة سياسة؟! هي كلمات يتداولها الناس وتختزنها الذاكرة تنتظم في عبارة تنزلق للتباهي مني أو من أي آخر .

فضَّ "سمير" الاشتباك بالانصراف إلى التاجر يلاطفه ويداهنه متقيِّدا بترشيداته مطيعًا يلبِّي تعليماته منضبطاً يُبكر حريصًا لا تفوته سانحة هشوشاً بشوشاً مهما أرهق ، لا يكل ولا يتذمر .. استوعب تجربة التاجر ثم فاقه دهاءً وحنكة ، وصار في غضون شهور ولد سوق يجني الأرباح الوفيرة من صفقات مشبوهة وصفقات مسموحة دون أن يتقاضى درهماً واحداً أو يطالب بمال حتى اختلى به التاجر ذات مساء وأعطاه رزمة دنانير ومنحه سيارة جديدة وتمنى عليه للمرة الثانية :

- يا ريتك رجل بنتي!

"رجل بنتي" هذه غاية مكلِّفة لكن هي أيضا ضمان مؤكد ثم بنتي هذه أيهن ، وهن المجلببات المنقبات القانطات المتهدلات الأثداء المترهلات شحماً ولحماً . قرر أن يدغدغ الأمل في التاجر .. يحِس الرغبة في الإقبال عليه ويخطو خطوة خجلى في اتجاه الغاية ؛ فقال بصوت خفيض :

- يشرِّفني يا عمي أن أصاهرك ، لكن تعلم يا عمي أنني لا أستطيع .. لا بيت .. لا مدخرات .. لا ..

وبكى ولد السوق ؛ فأجاب عمه :

- لا تبك .. الماديات لا تهم .. الأهم أنك موافق على الزواج من "أمْدَللّة" .

تساءل سمير :

- أمْدَللّة؟!

أجاب التاجر :

- ابنتي الكبيرة .

"أمْدللّة" كانت تكبر سمير بثماني سنوات ، وحيث إن المرأة كانت تُقيَّم ذاك الحين بالوزن فتوصف البدينة - بالمرأة الوافرة - دلالة على النضوج والاستواء ونعومة

الامتطاء فإن "أمد لله" كانت - وافرة جدًّا- لكنها لا تتلاءم ورشاقة ولياقة "سمير" طولاً وعرضًا ، وليست أهلاً منه للاقتناء - إلا أن الله قدَّر - تبرر أم "سمير" وتضيف بأن له في الأمر حكمة ولله ما شاء .

لم تعُد يد "سمير" هي السفلى ، إذ سلَّمه التاجر مفاتيح الخزانة ، وعندما احتد شريكه معترضا فضَّ شراكته ، وصار "سمير" شريكه الأثير الذي ازدهرت على يديه أمور البيع والشراء متسلحاً بالعينين الخضراوين والذكاء الفطري وتراكم الخبرة في شؤون السوق وما اكتسبه من مهابة عقب موقعة الفتى مهاب .

أمه تفاخر متى التقت الجارات في لَمَّة ، وتجاهر بصوت عالٍ متى كانت الجارة "زينب" مصغية ؛ فتتشفى الأم علانية أمام الحضور الواعي بحقائق الأمور :

- التراب في كف "سمير" يتحول إلى تبر!

تتلصص عيون الجارات بين هذه وتلك ويسود الموقف لحظات صمت في انتظار ردة فعل ، إلا أن أم "سمير" تضيف متحدِّية بصوت يتهدج فجأة :

- والحسود في عينه عود!

تحدَّثت المدينة عن عرس "سمير" و"دلال" ، التي صار هكذا اسمها لضرورات تتعلق بالتناغم بين الاسمين ، وعن البذخ والإسراف في الولائم ومظاهر الزينة وموكب الزفاف ذي السيارات الفارهة تتقدمه درَّاجات نارية توقف المرور عند التقاطعات إذ كيف لإشارة حمراء إيقاف رتل "سمير" و"دلال" ..

لكن الأمر وقع بين جارٍ ومجرور ، رغم التعاويذ والدعاء والفاسوخ عندما اختلى العريس بكل العروس ؛ فلم ينتصب من سمير أي شيء فيه إلا شعر رأسه ذعراً وما قدر على فضِّ بكارة "دلال" ، ولتدارك واقع الحال أطل "ولد السوق" من الباب بعد أن واربه على عجائز الفرح المتربصات الساكنات المتدثرات بالظلام وأعلن :

- زغاريد! .

ارتد إلى الخلف يغلق الباب فأضيئت الأنوار في القاعة ، وعلت الزغاريد ، ودوَّت الإطلاقات ، وانتظمت أخواته في حلقات يرقصن على إيقاع التصفيق ودقات الدفوف ، وتدفق الفرح والمرح والبخور ابتهاجاً بالفتح العظيم .

عين "زينب" بدت نافذة فقد أصابت "سمير" في مقتل - تقول أمه - بعد أن انقلبت به سيارته على الطريق السريع ذات ليلة إثر ملاحقة حثيثة من شرطة مكافحة المخدرات واعتقاله بضعة أيام حتى تخرج مخبراً وجيها طليقاً ، يبرر أبوه ما وقع وشوشة :

- محاولة اغتيال سياسي .. الولد معارض .. حذَّرته من الأمن الداخلي كثيراً ، لكن عموماً الله غالب! .. قدَّر ولطف .

سَرَتْ بقول الأب وشوشات ، ونصحه صهره التاجر بأن مقتضيات الوجاهة تستدعي الصلاة عند كل أذان ، وتستوجب صلاة الجمعة في الصفوف الأمامية بالجامع العتيق حيث يجب أن يبدو مستغرقاً في العبادة ؛ فاستجاب وثابر مراوحاً في كل صلاة بعينيه الخضراوين بين رنو وإغماض تقرباً إلى الله ، واستغراقاً في الإيمان . لكن ذات جمعة حملت إليه مفاجأة غير مستحبة إذ وقف خطيب الجامع الكليل العينين محاولاً أن يداري امتعاضه وبيده ورقة جاءته في التو شأن كل الجوامع مرفوقة بأمر أن تقرأ من على المنبر .

- هذه خطبة الجمعة مكتوبة لكن عينيّ كليلتان ، لا تقويان على رؤية الحروف .. أرجو أن ينوب عني أحد في هذا الشأن!

وصلت الرسالة إلى كل المصلين ، وعلت همهمات رافضة على استحياء واقترح أحد المصلين :

- ألقِ خطبتك العادية .. ارتجالاً .

لم يفعل ، وفيما بدا "سمير" يتململ .. امتدت يد الخطيب له بالورقة ، وكاد يعتذر لعدم قدرته على القراءة ، لكنه تجاسر على الحرف واعتلى المنبر ، وقرأ الورقة كيفما اتفق بصوت جهوري يتهدج وينفعل .. وتهتز عصا الخطيب في يده ملوحاً ، ويصمت بين الفقرات مستطلعاً صفوف المصلين حتى انتهى فاعتلى الخطيب المنبر وأضاف ، مرتبكا ، الخطبة الثانية مرتجلاً مبسملاً محوقلا .

لحق "سمير" بالخطيب بعد الصلاة ، وقد حاذاه مصلون وسأله متباهيا :

- ما رأيك يا شيخ؟!

لم يجبه الخطيب مستاءً متظاهراً بثقل السمع لكن "سمير" ألحَّ :

- ما رأيك يا شيخ؟!

استنفر غضب الخطيب واستهجان المصلين فانفجر الشيخ صارخاً بصوت حاد :

- يبارك لك الله في صحة الوجه!

مضى كلٌّ إلى غايته ، لكن الخطيب لم يدرك بيته إذ اختفى ، أمَّا الوجيه "سمير" فقد رسا على الضفتين بعد أن برر أبوه فعلته :

- حجاب على الكلاب!

وزلزلت الأرض زلزالها ، وقال "سمير" ما لها ، وشملت ارتدادات الزلزال كل المدن والقرى والواحات والأرياف بدرجات أقوى ، وخمد "سمير" في البيت يتابع كل الأنباء ، وينتظر حتى تأكد له تقوض أركان الهيكل البائد ودوي الحناجر المؤمنة الصادحة رغم الموت والدمار :

- الله أكبر .. الله أكبر .

فانضوى تحت مظلة الفرح والتكبير منتشيا بالنصر الكبير وما لبث حتى جلس إلى مكتبه مستغرقاً في التفكير حتى فاجأه صهره التاجر :

- ما بك يا "سمير"؟!

- لا شيء .. لا شيء يا عمي .
- ثمة شيء؟!
- أفكر ..
- فيم تفكر؟!
- متجر كبير في شارع دبي : أزياء الخليج .. بدل مموهة .. رجال .. نساء .. أطفال .

ابتسم صهره التاجر ، وقد فاضت عيناه بكل الرضى وأجاب مداعباً : - ولد سوق!

بنغازي 2012

obeikandl.com

الديوان

عندما رنَّ هاتفي المحمول ترددت في النهوض والمشي إلى حيث وضعته مبرراً ترددي بالقول إن المشي في مشيئة الله ، مقولة توالت مع كل رنَّة دون أن تُعزى لأي سبب ظاهر أو باطن لكن سكوني ممدداً على الكنبة متوسداً مخدتي الأثيرة رغم إلحاح الرنين كان لا بد أن يفسَّر ، حقَّاً أن المشي في مشيئة الله ، لكن هذا القول لا يتعارض ونظرية السببية ، وحيث أن القرارات الخاطئة تؤدي حتماً إلى نتائج خاطئة ، رأيت أن أُعمل الفكر في شأن ترددي وسكوني وأغوص في أعماق الباطن وأنفجُ بالأسباب إلى الظاهر حيث أخضعها للتحليل والتمحيص والمعاينة تمهيداً لاتخاذ القرار الصائب .

هاتفي المحمول كان يوتّرني رنينه الموصول في زمن ولّى فأخرسه باختيار وضع صامت حتى إذا ما عنَّ لي التواصل أخرجه عن صمته ، صار الآن في زمن أقبل يوتّرني صمته رغم أنّي لم أخرسه لكن وحرصاً على مبدأ الشفافية السائد القول به في التو : لا بد أن أقرَّ بأنه يحدث أحياناً أن يرنَّ :

- آلو .. أحويج ..؟! كيف الحال يا أحويج؟!

- آسف .. الرقم خطأ .. أنا لستُ هو .

أُنهي المكالمة ، وأعود مشياً إلى الكنبة مكابداً عناء النهوض والوقوف والخطو جيئة وذهاب .

خطأ الطالب احتمال موثق بالتجربة إذًا ، ولا بد أن يوضع في الاعتبار رغم إلحاح الرنين .. الأمر الذي يستوجب أن أظل كامناً مترقباً جادًّا في البحث عن احتمالات أخرى ..

نهرني شائب عيَّاب ذات مساء في حضور رهط من المعزين بمأتم عندما قلت أن لا أحد أبلغني بوفاة الفقيد :

- أنت لا ترد على الهاتف .. أُسكت .

حاولت أن أتملص فقلت :

- ربما .. خارج نطاق التغطية!

بوقاحة جليَّة وصوت غليظ رنان أضاف الشائب :

- بل .. لم يتم الرد!

ترفَّعت عن المهاترة واقتنيت الصمت .

عندما تذكرت هذه الواقعة ، وتوابعها تبيَّن أن رنين هاتفي المحمول في مرات متباعدة ونادرة لم يكن يحمل إليّ

إلا أنباء الوفيات وحوادث السير ، وما شابه ، حتى أنني رأيت أن أستبدل كلمة "رنين" بكلمة "نعيق" ، استظرفت الفكرة وابتسمت مماز حاً وحدتي لكنني اكتأبت في التو عندما عاود نذير الشؤم نعيقه :

– عقيلة .. والله زمان يا صديقي!

ثم سرًّا :

– يا ساتر!

جاءني صوت عقيلة مماز حاً :

– والله زمان؟! .. كيف؟! .. أنت لا ترد على الهاتف أيها الشائب المارق!!

لم يدُر بخلدي يوماً أنني شائب ، كنت أرى أندادي كذلك أمَّا أنا فلا ، ثُمَّ إنَّ عقيلة أيضا شائب ولا أتوقع أنه كان يعيّرني بالشيب ؛ فهو وقار ، ولا أظن أنَّه كان يعني بالمارق المعنى الوارد في المعجم .

كدت أبادر : – من مات؟ .. لكنني تريثت ؛ فقال :

– كيف حالك يا صديقي؟

– الحمد لله .

– أين أنت؟

- في البيت .
- إن البقاء في البيت هو أقصر الطرق إلى الموت .
- العياذ بالله!
- لو اقتدى بك المتقاعدون والمقلَّصون لخلت شوارع المدينة من المارة .. أنتظرك في الديوان وفنجان قهوة ..
- لكن الدنيا ليلَّت؟!
- تعال ماشيًا .. المشي مفيد .

ضيق الخاطر وإلحاح عقيلة والمشي المفيد و"الديوان" ، قريب من البيت وما سأجده من سرّية وبهجة في الحديث مع عقيلة عوامل أقنعتني ؛ فتهيأت بعد أن ألقيت هاتفي المحمول على الكنبة وخزرته شامتا متخلياً عن صحبته ، ونفذت إلى الشارع أمشي كما (الوجي الوحِل)* .

لم أكن حافي القدمين قطعاً لكن الوحل نال من فردتي الحذاء ، الأمطار الغزيرة في ليلة لم تبرح تجمعت مياهها في غدران صغيرة متقاربة متآلفة تربطها قنوات اتصال مرئية

* الوجي الوحِل : الحافي القدمين ، المتلطخ بالوحل .

وغير مرئية ذات فعالية نشطة رغم تصدي الأوحال واستحواذ النقر على ما يغمر الحواف من المياه .

- خيرات .. ما شاء الله!

كان عابراً لم يُرني وجهه اجتازني في خفة غير عابئ بالغدران والنقر والأوحال ولم تخبرني نبرة صوته بدلالات قوله : ساخراً أم حامداً لم أتبين ، لم ينتظر مني ردًّا ، لا يهم ، الإنصات والصمت ميزة ثمينة كلَّفتني عقوداً من المعاناة والصبر ولا يمكن التفريط فيها لمجرد قول عابر .. الجار جرى نحوي ، وكأنه بوغت بتسللي ليلاً ، وسألني في فضولٍ وحذرٍ باديين :

- لا بأس يا أستاذ؟! إن شاء الله خير؟!

- مساء الخير .

- هه .. إن شاء الله خير؟!

- الحمد لله!

صمت برهة مترقباً إضافة ، وحيث إنه لم يكن في جعبتي ما أضيف تململت شروعاً في استئناف المشي لكن الجار استوقفني معترضاً :

- إلى أين؟!

تضايقت ، لكني أجبت :

- إلى الديوان .

- مقهى الديوان؟!

- نعم .

- في ها الليل؟!

- نعم .

- مشياً على الأقدام؟!

شئت أن أشاكسه :

- سرى بي عقيلة!

بدا أنه لم يفهم ؛ فراق لي الأمر ، لكنه شخصَ فاغراً فاه مبهوتاً فرأفت به ، نطق :

- عقيلة استعار سيارتك فاضطررت إلى المشي .

- تماماً .

ارتاح جاري بعد أن فهم فأبدى أريحية مشبوهة :

- تفضل .. سأوصلك .

- لا .. لا .. شكراً .

- لماذا؟!

- أريد أن أمشي ؛ المشي مفيد للقلب والشرايين والصحة عموماً .

obeikandi.com

- لا بأس عليك .. لكنك لا تبدو مريضاً ..
- الحمد لله! .
- الدنيا ليل ، والديوان قد يكون مقفلاً الآن .
- هاتفني صديقي عقيلة ودعاني إلى فنجان قهوة الآن .
- كل هذا العناء من أجل فنجان قهوة؟! .. تفضل عندي سأسقيك فنجان قهوة ..
- كل هذا العناء من أجل صديقي عقيلة .
- اسمع ..

لم أسمع إذ تركته يهدر . تلاحقني اعتذاراته :

- سامحني يا أستاذ .. حق الجار على الجار .

عند الناصية اعتليت الرصيف المرتفع متجنباً السيارات المارقة الحافلة بالاجتيازات والتجاوزات والاحتكاكات الطفيفة وتسلل في غفلة مني شعور بالأمان والاطمئنان يبدد توجسي ، وزهو بقدرتي على الاعتلاء رغم توكؤي على ركبتي في انحناءة بدت ملفتة وغير رشيقة ، لكن ما إن خطوت بضع خطوات حتى توقفت فجأة سيارة رباعية الدفع مثيرة للانتباه والريبة والاحتمالات والأوحال .

- إذا حلَّ القدر بطل الحذر!
- أنت "تأبط شرًّا" .. تفاءل يا أستاذ .

في طرفة عين عادني قولي وتعليق صديق ؛ فقررت وقد توقفت أن أتفاءل فأبدو سمح الوجه أباسم القادم وألاطفه دون مبالغة تكشف عن ضعف بشري محتمل أو توقعات غير مستحبة .

عندما أطبق باب السيارة بعنف فوري وتوجه نحوي واثق الخطوة مديد القامة ، تأكد لي أنه يقصدني ، ولأن الليلة ظلماء لم أتبينه حتى بعدما نط في خفة معتليا الرصيف يواجهني :

- أهلا يا أستاذ .
- أهلا .
- لا بأس .. ما بك؟
- لا شيء .
- إلى أين تمضي ماشياً؟

أشرت بسبابة يدي اليمنى صوب "الديوان" :

- إلى هناك .
- كنت أحييك وزوجتي فلم تنتبه!

- آسف .

- زوجتي لاحظت أنك سارح مهموم .. مشكلة؟!

- ... ...

- أصل الدنيا مصائب .. هات ما عندك .

- دعاني صديقي عقيلة إلى فنجان قهوة في "الديوان" ، ورأيت أن أمشي إليه على قدميّ .. الطبيب نصحني بالمشي ففعلت .

غرز عينيه في عينيَّ ، وشرع يدعك ذقنه بالخنصر والبنصر مشككًا في مصداقيتي ؛ فبدوت كمن يخفي أمرًا جللاً ، أضاف :

- "ويَّة" قالت أن الأستاذ لا يمكن أن يمشي على قدميه إلا إذا ..

قاطعته :

- من "ويَّة"؟

- زوجتي آية!!

انتهيت إلى أن الرجل ينتمي إلى جماعة "ويّة" قالت ، حسنا لله في خلقه شؤون لكنني لا أعرف "ويّة" هذه ولا أعرفه ، تنبَّه للأمر فقال وقد دهش :

- ألا تعرفني؟!

صمتٌ .

- نحن أنساب!!

صمتٌ .

- "ويّة" تبقى بنت الحاجة فاطمة ؛ ولد أخت الحاجة فاطمة متزوج من بنت أخ الحاجة رقية والحاجة رقية تبقى أخت عمتك بالرضاعة .

أحرجني جهلي بعلم الأنساب في حضرة رجل عليم فأبديت حركة غير عفوية تعني رغبة في الانصراف ، اعترض :

- قلت إن الطبيب نصحك بالمشي .. مشكلة في القلب ..؟!

رفعت سقف رغبتي في الانصراف إذ استدرت ، ثم ، فررت .

- تفضل سأوصلك إلى الديوان .

- شكراً .

- "ويّة" تزعل .

- ...

- اسمع ..

لم أسمع إذ تركته يهدر تلاحقني تبريراته :

- يا رجل .. نسيب ولا ابن عم قريب!

مطر الليلة التي لم تبرح كان قد توقف لكن رذاذه يناوشني ويبذر حبيباته المثلجة على وجهي ، وهبَّات ريح تصفقني فتميلني حتى تكاد توقعني ، والصيدلي الشاب يوشك أن يغلق باب الصيدلية لكنه ما أن رآني حتى توقف مترقباً :

- حبوب الضغط وصلت .. تفضل يا أحويج .

تفضلت ، ناولني علبة الدواء ، استطرد :

- تأخرت في الحضور يا أحويج .. العلبة الأخيرة!

- ... ...

- لا بد أن ضغطك مرتفع الآن ، وإلا كنت جئت نهار الغد .

- لا .. لا .. أبدا .. الحمد لله .

بدت عيناه تطلبان تبريراً ، أضفت :

- جئت عابرا .. التقيتك مصادفة .

- صقع عليك .

قال ، ثم زمَّ شفتيه وأوسع حدقتي عينيه ، وخشيت أن يؤول قولي فيظنه تقليلاً من شأن اهتمامه ، الأمر الذي أخشى عواقبه ، واستنتجت أن القول بالشفافية له سلبياته التي قد تدفع ببيدق الصراحة إلى خانة الوقاحة ، الأمر الذي لا يصدر إلا عن قوم يعمهون .. باسمته أداهنه :

- شكراً يا دكتور على اهتمامك .. (ثم) تصبح على خير يا دكتور .

- عفوا .. إلى أين؟

- إلى الديوان .. دُعيتُ إلى فنجان قهوة .

أبدى الصيدلي انزعاجاً ، وأنَّبني :

- لا .. لا .. القهوة ترفع الضغط .. أنصحك بعدم تناول المنبهات ليلاً ..

- شكراً .

استدرت وخطوت أغادر ، استوقفني :

- انتظر .

- نعم؟!

- لحظات .. سأوصلك إلى البيت .

الشاب يريد أن يغيِّر مساري ، كدت أن أرمي في وجهه الدواء ؛ فخياراتي دونها الموت ، لكنني لم أفعل إذ صرخت به :

- بل إلى الديوان ماشياً .

تراجع :

- على كيفك .. لكن اسمع ..

ولم أسمع إذ تركته يهدر تلاحقني توجيهاته :

- إلا المنبهات يا أحويج .. إلا ...

رذاذ المطر توقف وهبّات الريح خمدت ، وبدا الطقس رائقاً والقمر ساطعاً والسحب العابرة تبتعد صوب سماء أخرى .. فسرتُ تحوّل المناخ في لحظات من حال إلى حال بتداخل الفصول ، فقائل بأن فصل الشتاء قد بدأ ، وقائل بأن فصل الخريف لم ينته ، لكل معاييره وحساباته لكنه على أية حال تداخل الفصول المؤدي إلى تقلبات الطقس واعتلال المناخ .. خطر لي أن أعد خطوي من حيث أمشي إلى "الديوان" ، لكنني امتنعت فخطوي الواهن لن يحقق أية غاية ؛ الخطوة معيَّرة بما يقارب المتر ، وخطوتي أقل من نصف متر ، والنتيجة حتماً لن تكون دقيقة ثم إنني

أبدأ القياس من آخر المشوار بينما البدايات يجب أن تكون من أوله ، وما دمت لم أفطن منذ أول المشوار ؛ أرى أنه من الحكمة أن أتخلى عن هذا الشأن غير ذي الجدوى وأريح ذهني المكدود من إرهاق الأرقام . - خطرفة!

صرخت أنا الآخر ، ثم صاح :

- انتبه!

سيارة صغيرة معتمة المصابيح متهالكة الأطراف شُدَّ على مكابحها بقوة فجأة ، وفي غير توافق ، والسرعة المتهورة فأحدث احتكاك عجلاتها بالأرض ضجيجاً وانحرافات إلى اليمين واليسار ، لكنها توقفت في النهاية ، وارتدت إلى الخلف متموجة حتى صارت في موازاة وقفتي .

شاب نحيل بدا خلف المقود رث الثياب جاحظ العينين يمتص في إعياء ظاهر سيجارة ملفوفة ، صمت برهة ثم سألني في بطء شديد :

- كيف حالك يا أحويج؟

- الحمد لله .

- لا بأس؟

- لا أراك الله بأساً!

- أعني .. أعني ..

بدا عييًا فكدت أصرخ به :

- انصرف .

لم أفعل ، خشيت غضبة الشاب ، ثم رأفت به إذ قد يكون ساعيا إلى خدمة نقل بأجر ، الظاهرة التي استشرت في أوساط الشباب نتيجة البطالة المزمنة ، لكن ما يشاع عن جرائم الاختطاف والقتل الزمني جانب الحيطة والتردد .

- أنت لم تعرفني يا أحويج؟

لاحظ الشاب ، وقد نفث نحوي دخاناً غزيراً استنشقته زكيا برائحة البخور الفوَّاحة ؛ فلم أجبه إذ استهجنت فعلته وإن استطبت الشم ، أضاف :

- أنا منعم ، ولد صاحبك الحاج الطيب .

- أنعم وأكرم .

- أنت .. تمشي؟!

- نعم .

- غريبة!

- لماذا؟

- الطريق غير مـأمون .. شـباب طـائش .. سـيارات تنطلق كما الـصواريخ .. سـيارة تطفّـك لا سمـح الله!
- مكاني قريب .
- أين؟
- الديوان .
- حسناً .. سأوصلك .
- شكراً .. أريد أن أمشي .
- لا .. لا .. هذا غير ممكن!

كاد يرغمني ، لكن إحدى العجلات المهترئة طابقـت الأرض تماماً ، استاء الـشاب بعـد أن تـبين الأمـر وهـرش فروة رأسه بأظافر غير مقلمة هلالية الحواف داكنة ، بدا أنه يواجه شأناً غير شأني ، قال : مشكلة .

- .....
- ليس لدي عجلة احتياطية .
- عموماً .. شكراً سأمشي .. تحياتي للوالد .
- انتظر .. سأتدبر الأمر .. اسمع ..

ولم أسمع إذ تركته يهدر ، تلاحقني كلماته :

obeikandl.com

- صاحب أبيك خير من صاحبك يقولون .. لكن شاء الله وما شاء فعل ..

كنت ابتعدت أتمتم :

- ونعم بالله .

بدت أضواء الديوان خابئة والطاولات مرصوصة والكراسي مرصوفة ونفر من الندل يتثاءبون ويتهيؤن للانصراف ، تصدى لي أحدهم في غير ما مودة ، عاجلته :

- الأستاذ عقيلة .

- أنت ...؟!

- نعم .

تبيّن فدلق قليلاً من الإقدام على صفحة وجهه وأخبرني ملاطفاً :

- تأخرت يا أحويج .. هاتفك فلم تجب .. الأستاذ غادر إلى مأتم منذ قليل .

- سرى بي ولم يسر عنّي !

- نعم ؟ !

- لا شيء .

بنغازي 2012م

الكرمود *

الجسد ممتلئ متناسق الأطراف بالكاد تحتويه المرآة ، الوجه صبوح وضّاء مشرق دون طلاء ، العينان واسعتان جميلتان تتألقان دون كحل سحرا وبهاءً ، الأسنان كحبات اللؤلؤ تبدو إن أفرجت الشفتان المتوردتان عنها بابتسامة أو ترنُم بنداء ، الشعر أسود طويل مسدول على الكتفين تتباهى منه جدائل بما احتوته من النهدين الشامخين في اشتهاء ، نخلة تدلت عراجين ثمارها رطبا شهيا دون قطاف ولا حتى رجاء ، بتول عطشى تخشى أن تذبل دون ارتواء .

كل يوم تتحلّى وتتمنّى أن تصدح في أرجاء القرية زغرودة فرح ، أن تَدق الطبول وتنتظم حلقات الرقص والغناء ، أن تزف إلى عريس يلوح ذات فجر في الأفق عند تطابق البحر والسماء ، يفرد شراع مركبه فتعلو به الأمواج وتهبط لكنه يوجه الشراع بقوة واقتدار مغالباً عصف الرياح تقوده المهارة صوب الشاطئ حتى إذا ما أرسى مركبه

* هودج صغير .

واندفع نحو القرية حاملاً الفرح انطلقت الزغاريد ودُقَّت الطبول وتحلَّق الكل يرقص ابتهاجاً بعرس طال انتظاره .. فيا لذلك الفارس الحلم الذي امتد التوق إليه عشرين عاماً ، توالت عجافاً منذ بلغت مبلغ النساء .

صرخت :

– متى؟! متى؟!

صفعت الصرخة الأم في وسط الحوش فتنبهت إلى أن تجهيز إفطار الأب قد تأخر ، وأن سالمة تحتج فهي من سينال منها تقريع الأب ، سارعت الأم مهادنة :

– هيا .. الفطور جاهز .

كوّمت سالمة الشعر فوق رأسها ، وأحكمت فوقه المحرمة ، تجلببت فما أضاء منها سوى الوجه مخفوراً بالحياء فيما أجهز الكساء على حسن الجسد وكل الما وراء .

خطت إلى وسط الحوش كما "خيال مآتة" ، وهي التي ما شاءت لكن الأب شاء ، الأب كان أدلى بالسطل في قاع البئر على عمق بضعة أمتار حتى غاص في الماء وامتلأ ، رفعه بكلتا يديه ودلق ماءً زلالاً بارداً على رأسه

وجسده ثم شرب حتى ارتوى ، نفض ما علق بثيابه من بلل وأبقى ما بقي منه إذ ستتكفل شمس الظهيرة به ، انتعش ، حاول أن يتصور تجاويف الأرض التي تحول مسالكها بين العذب والمالح ؛ فالبئر ذو الماء البارد الزلال لا يبعد عن مياه البحر المالح الفاترة إلا عدة أمتار ، كذا ، شأن الآبار الأخرى ذات الأغوار الدُّنيا المنشورة في حقول القرية ما بين شجيرات الكروم من تين وعنب وشجيرات الرمان والحمضيات وغابات النخيل التي خصتها الطبيعة بالاستسقاء من أعماق الأرض الخيِّرة المعطاءة دون عناء .

استلقى الأب على الرمال الندِيَّة الرطبة بعد أن أزاح بكفيه الرمال السطحية الساخنة تحت كرمة مورقة تفيء ظلاً واهناً كي يقي عينيه ورأسه أشعة الشمس ولفح الحر ، كوَّم تحت رأسه مخدة رملية ، تمطى ثم غطى عينيه بظهر كفه .. فور أن فعل اختلى فداهمه قلقه المزمن يؤجج النار في أعماقه ، تقلَّب على جانبيه مراراً مطارداً ما يعتمل في داخله من أفكار متواترة ، لكن نار الفكر تستعر وألسنة اللهب طالت منه الحلق ، وقد جفّ ريقه وشعر بجوع شديد وبدقات قلبه تتسارع وبعرق غزير يبلل صدره

وبقواه تخور ، أدرك أن نوبة هبوط قد لحقته شأنه دائما إن تأخر موعد إطعامه ، قرر أن يؤنب سالمة لكنه استكان مرهقاً يرمق السماء بعينين شاردتين تحاولان قنوطاً أن تقرأ الغيب ، حتى إذا ما تحوَّل بعينيه إلى البحر ذي الزرقة الصافية المزهو بعناقه الأبدي للسماء راقت له فكرة أن يكونا توأمين ملتحمين لا ينفصلان أبدا ، لكن البحر انشق عن فتى هلامي غير ذي ملامح امتدت منه يداه نحو الشاطئ وكأنه يدعو إلى الالتحاق به .. فزع الأب فزعاً شديداً ، صاح بصوت عال :

- لا .. لا ..

أجابته سالمة :

- لا تؤاخذني .. لا بد أن تأكل .

فهمت سالمة صرخات الأب على أنها رفض للطعام ، وتهيأت للتأنيب ، وضعت طبق سعف النخيل على الأرض فلفتها الحركة العصبية لجفني عيني الأب وبلل الأهداب ، صاحت مذعورة تناشد الأب أن يقعد :

- أبي .. أبي .. ما بك؟ .. اجلس ..

تجرأت فأجلسته ، عيناه تلاحقان ذلك الفتى الذي انشق عنه البحر بينما كان يتضاءل ويتلاشى حتى اختفى .. امتدت يدها إليه بحبات التمر فكوب اللبن ، التهم التمر ، دلق كوب اللبن دفعة واحدة في جوفه ، اقتطع لقمة من رغيف خبز التنور الساخن وابتلعها في نهم ، عزَّ عليه أن يبدو ضعيفاً في عيني سالمة ، رأى أن يداري ضعفه بالتأنيب ، تراجع عندما رأى الدموع في عينيها تبكيه ، تحوطه حباً وحناناً ، تناشده أن ينزع عنه ضعفه ويمتطي صهوة قوته ويظهر كما دوما بدا في ذروة إباء الآباء .

متلعثمة قالت بصوت خافت :

- ما بك يا أبي؟!

- لا شيء .. لا شيء .

- قم معي إلى البيت .

- لا .. لا .. أحضري الشاي .

وقف ، ناول سالمة الطبق ، شاء أن يقول لأعز الناس سالمة ابنته التي يحبها دون أن يجاهر قولاً يطمئنها لكنه امتنع استكباراً ، اكتفى بأن فرد قامته كي يبدو عفياً ؛ فيبدد قلق سالمة ، ثم قال لها مباسماً :

- الشاي قبل أن يجيء أعمامك .

- حاضر .

استدارت ومشت صوب البيوت ، وقد تناثرت على الساحل ذي الرمال الذهبية بمحاذاة الشاطئ مدى امتداد البصر ، لاحت البيوت متواضعة فقد بنيت من طوب رملي وجذوع نخيل وغصون شجيرات فلا تقي من صقيع ولا تحجب شمساً ولا تضئ ظلاً إلا النزر القليل ، فهي تنبئ عن فقر مدقع ؛ إذ تعتمد القرية غالبًا على مرور قوافل عابرة في توافق مع مواسم نضوج ثمار الشجيرات ، وتخص بالشراء نتاج العنب البيضاوي الأبيض الخالي من البذور ذي النكهة الزكية والعنب الكروي الأحمر الصغير للعصائر العذبة ، وإن عمد سكان المدن إلى تخمير عصائره وبيعها للنصارى - كما يقولون - نبيذاً شهيًّا .

لم تكن قد غابت تماما سالمة التي بدأت سنون العنوسة في اجتياح أي فرح قادم إليها فيزفها عروساً إلى بيت أفضل ، إلى حياة أكرم ، إلى مستقبل أرحب ، إلى حُب ..

توقف الأب عند هذا الحد مذعوراً .. يا للعار .. حب .. كلمة تدحرجت في أعماقه جمرة تستعر ، لكن ،

البنت كبرت وفتيان القرية نزحوا إلى المدن سعيًا وراء أعمال هامشية ذات مردود ضئيل يقتصر بالكاد على إشباع بطونهم دون اعتبار لأب أو أم أو عائلة تقبع في القرية واجمة تنتظر الفرج .

هم لا يجيئون إلا لماماً وعلى عجل دون أن يلتفتوا إلى سالمة أو غير سالمة شأن ذلك الـ ..

تردد في إلحاق صفة مهينة بابن أخيه بدر الذي نزح عن القرية إلى المدينة منذ بضع سنوات ، وتجرأ على القرية حتى إنه دعا أبويه إلى الالتحاق به متنكراً للقرية التي أنبتته لكن أبواه رفضا وبقيا في القرية يؤنسانه ويذكّرانه أحيانا بيوم جاءا يخطبان سالمة .

جاءا في ذلك اليوم وكان معهما بدر يخطبان سالمة ، بدر لم ينطق بكلمة واحدة وبدا غير مقبل على الخطوبة ، أبو سالمة اعتقد أن الحياء منعه لكن توالي شهور غياب بدر وعدم تواصله ولو بعمه يرجح عدم إقباله على الزواج بسالمة رغم أن والديه يكرران بين شهر وآخر تأكيد أمر الخطوبة .

– زيتنا في دقيقنا!

كانا يقولان :

- رد السلام يا شائب!

بدا جليا لهما أنه كان سارحاً في عوالمه ، اثنان من كهول القرية تعودا زيارته في الضحى بين يوم وآخر ، يحتسيان الشاي ، يعاودان الحديث في ذكريات مشتركة ، في حكايات مكررة ، تنوء صدورهم بالضيق ، يكتنف نفوسهم الملل ، يلوذون بالصمت .

جاءت سالمة تحمل طبق الشاي الذي لم يتسع تماماً للبراد والأكواب وخبز التنور .. الأب أبدى عن غير قصد فتوراً في الترحيب بالضيفين ، نهض على عجل يلتقي سالمة في منتصف الطريق ، يتناول الطبق :

- لا تعودي للظهور عندما يزورني رجال .

- رجال؟! ألم يكونوا قبل مجيئهم أعمامي؟!

تساءلت سالمة دون أن تنبس ، وولت مدبرة وطافت بمحياها ابتسامة خجول فالأب يخشى عليها حتى من الكهول .

- الرجال رجال حتى في القبور!!

كانت سمعته دائم القول .

استدعت الذاكرة العينين المتلصصتين لذلك الشائب الوقح الذي كان يجالس الأب ذات صباح ويبحلق مجرداً إياها من ثيابها قطعة قطعة ، حتى ذعرت وارتعشت ، وأوقعت الطبق السعفي بما حمل ثم فرت إلى البيت دون أن يفطن الأب بينما عزته الأم إلى الحسد :

- عين .. والله عين!! الشائب معيان!

وكادت سالمة أن تصوب قول الأم :

- عينان يا أمي .. عينان!!

بدا عند الأفق حيث تطابق السماء البحر ، العريس الحلم يبشر بالفرح القادم عبر البحار والانعتاق من قيود الزمان والمكان والانطلاق في رحاب الأرض الشاسعة ، وقد فُكت من اليدين الأغلال وازدان المعصمان بدبلجين من الذهب يبرقان شأن الساقين المباهيين برنين فردتي الخلخال المستقرتين على كعبي القدمين المخضبين بالحناء كما اليدين .

استغراق سالمة في الحلم حاد بها عن المشهد ، تداعت الرؤى وتوالت التفاصيل ، فالعريس الغريب لن يقبل بالحناء ولا الدبلج ولا الخلخال ، الغريب الوافد سيشترط

ثوب الزفاف الأبيض والطرحة والكعب العالي والشعر المفتول المكوم فوق الرأس أو المقصوص من عند العنق .

دوّى صراخ سالمة :

- لن أقص شعري الذي يفترش ظهري منسدلا حتى الردفين مباهية به بنات وصبايا القرية في كل خلوة ، لن أتعثر بكعب عال يربك خطواتي نحو الفرح ، لن أتزين إلا بالحناء ، لن أنصت إلا لرنين الخلخال ، لن يزدان معصميّ إلا بالدبلج ، لن أحط طرحة على رأسي ، لن أرتدي في عرسي ثياب عرس الغريب ، لن يمتلك عصمتي إلا رجل من قريتي ؛ فأنا سالمة بنت القرية .

دوّى صراخ سالمة ، أفزع الأم ؛ فهرعت من وسط الحوش :

- بسم الله .. ما بك؟!

أجابت سالمة مرتبكة :

- ثعبان! ثعبان!

علّقت الأم ، وقد اطمأنت إلى سلامة سالمة :

- إن الثعابين تبدو سلسة مصقولة لامعة لكنها تلدغ .. احذري الثعابين .. انتبهي .

تبعت سالمة الأم إلى وسط الحوش ، انحرفت الأم صوب المطبخ كي تعد لوجبة الغداء ، مشت سالمة إلى حجرة خصصت لها وأمها للنوم .. أبوها ينام وحيداً في حجرة أخرى صغيرة ربما كانت هي الأحق بها لكن خوف الوالدين على بناتهم ربما كان السبب ..

إحدى بنات القرية قالت لها ذات يوم في خبث :

- عندما يشيخ الوالدان ينفصلان إذ لم تعد ثمة حاجة إلى خلوة!!

ذاك اليوم انزعجت سالمة ، اعتبرت قول البنت سُبَّة وقلة أدب ، لكن سالمة كبرت ونضجت وأدركت أن الهرم يصيب كل الأشياء بالذبول والانكماش وزوال الرغبة .

اجتاحت سالمة الرغبة في استعراض ثياب عرس الأم المخزنة في صندوق العرس منذ عقود ، الصندوق أخضر خشبي كلح لونه وصدأت نجومه وأهلته الزنكية المذهبة المرصع بها جانبيه وغطائه لكنه رغم القدم ظل يقبع في ركن الحجرة مقاوماً صروف الزمن محافظا على ذاكرة أفراح القرية .

رفعت سالمة غطاء الصندوق بعد أن أزاحت ما وضع عليه من بطاطين وشراشف ومخدات ، انبعثت من

الصندوق رائحة عطنة متربة وجدت فيها سالمة تبريراً ؛ ستفرد الثياب ، تهوِّيها ، وربما ، تنشرها على الحبل في وسط الحوش كي تتعرض لأشعة الشمس دون اعتراض أحد ، لكن :

– لم خطر لك الأمر الآن؟!

خشيت سؤال الأم ثم تمتمت متجاوزه الاحتمال :

– عموماً!

تراءى لها أن صندوق العرس ، وإن كان أقصر وأعمق من التابوت يبدو كما تابوت يشيِّع ذاكرة أفراح القرية إلى دار الفناء .

– أعوذ بالله من الشيطان .

انبرت سالمة والتقطت "العبروق"* ؛ نفضت عنه الغبار وغطَّت به رأسها ولفت الجزء الأخير منه حول رقبتها ، مدَّت يدها وأخرجت رداء الحرير الطبيعي البني الغامق ذا الزخارف الفضية ووضعته على السرير ، خلعت عن رأسها "العبروق" ، وأضافته إلى الرداء ، أخرجت

* العبروق : شال طويل من الحرير مزدان بخيوط فضية .

"القمجة"* . ابتسمت ، العيون لا تعبأ إلا بالظاهر فلا بأس من أن يكون الجزء السفلي من القماش العادي ما دام العين لا تطاله ، العيون لا تعبأ إلا بالظاهر فعلا ، هي ، المجلببة المحجبة لا يمكن للعيون أن تلتفت إليها ، وقد غطى القماش تفاصيل الجسد اليانع وعبق الجمال الساحر وتوق الشباب الفائر ، تأسَّت ، تناولت "الشملة"* ؛ شدَّت السروال من قاع الصندوق ، رمته على قطع الثياب المكومة فوق السرير ، أغلقت الصندوق ، احتضنت كوم الثياب محاطاً بذراعيها على صدرها تضغط به عليه ، خرجت إلى وسط الحوش تنشر قطع الثياب على الحبل .

ابن العم بدر بعيد لا يفي بوعد وإلا كان تودد وجاء بالهدايا في الأعياد على الأقل ، الرجل الراغب في الزواج يُقدم بين حين وآخر ملاطفا ، إلا بدر ، القذر ، الجلف ، عينا صقر ، حاجبان كثيفان ، ملامح جادة ، وسامة ملفتة ، قامة منتصبة ، خطوات واثقة ، رجولة طاغية لكنه

---

* القمجة : ثوب طويل ذو أكمام واسعة حيك الجزء العلوي منه من قماش فاخر مطرز بزخارف من الفضة أما الجزء السفلي فحيك من قماش عادي .

* الشملة : حزام يشد الوسط والرداء .

يظل حلماً وكفى ، لا ينثني ، لا يلين ، لا يلاطف ، شأن الرجال في حضرة النساء .

تأوهت : بدر!!

باغتت الأم سالمة ، وكأنها اكتشفت ما تنوء به من يأس وما يدور في خيالها من رؤى وما يدور في رأسها من خواطر وأفكار .. الأمر الذي أربك سالمة وأسلمها لدوار خفيف حتى كادت أن تتهاوى خجلا من التفكير في هكذا أمور بل النطق متأوهة : بدر!

أخبرت الأم سالمة متوجسة :

- بدر جاء إلى القرية .. عمك كلّم أباك .. سيزورونا الليلة .. مبروك يا بنتي .

تمنّت أن تفر إلى حجرتها ، لكنها خشت أن تقع أرضا فلا حول لها على احتمال كم الفرح .. يتورد وجه سالمة وتتسارع نبضات القلب ، تتداعى ، تتماهى ، تسحب القدمين دون أن تنطق ، تستلقي على السرير ، كل الأطراف ترتعش ، عرق غزير يبلل كل البدن ، دموع ساخنة تنثال على الخدين ، الفرح لا يجيء من وراء البحر ، الانعتاق شأن خاص لا تجلبه شخوص هلامية ،

الفرح تنبته أرض القرية ، الخلاص يجيء به بدر والعرس لا يكون فرحاً إلا تحت أشجار النخيل .

زغردت الأم وتناهت زغاريد النسوة من كل الأنحاء ، شاع الخبر فتلاحقت مظاهر الفرح ، سادت حركة غير مسبوقة : ضجيج وضحكات ومرح ، ما حدث أن تشهد القرية فرحاً ، دأب أهل القرية على التلاقي في المآتم فقط ، بشرى فرح ، عرس ، ضرب من المستحيل ، تنادوا ، استعجلوا العرس من أجل الحياة ، بدا وكأنهم يخشون أن يكون الخبر فرية فهرعوا يؤكدونه بالفعل ، تحلَّقوا يحتفلون :

- اليوم وليس غداً .. الآن وليس بعد حين!!

تدق الطبول ، تصدح المزامير ، تتراقص الدفوف ، يقام العرس فوراً ، تُزف سالمة حالاً .

اعترض الأب :

- ولكن!

ردَّ رجال القرية بصوت واحد :

- ليس هناك ولكن ..

وتكفلت القرية بالعرس ، فالعرس عرس القرية ، نُصبت الخيام وفرشت ، عُلقت عقود مصابيح الزينة ذات

الألوان الزاهية المتلالئة ، رُشت ساحة حفل العرس بالمياه ، نُحر قعود ، اختصت نساء تجمعن في خيمة بالطهي والإطعام ، بدا أهل القرية وقد تدافعوا وتسابقوا وتضاحكوا وتعاضدوا وتكافلوا من أجل "سالمة" بنيانًا مرصوصًا ، مشهد بكل ألوان الطيف يشع حبوراً وسروراً وحياة .

جاء فتيان يحملون المأذون على الأعناق ، عُقد القران في التو ، يُعقد فيلتئم الكهول في خيمة الكبار :

– مبروك .. أضاء "بدر" سماء القرية .

ويلتف الفتيان حول بدر يهنئونه ، يعانقونه ، يمازحونه ، عينا الصقر تتألقان تحت الحاجبين الكثيفين فتضفيان على وسامة بدر بهاءً وأنفة ، الفرح أخفى الملامح الجادة وأحلَّ ابتسامة وقورة ربما شوهدت لأول مرة من أي أحد ، جلد "بدر" وصبره وصمته كل الزمن الفائت يستأهل مظاهر الرضا والفرح والحبور .

سالمة لم تكن وحيدة ، حشود من المشاعر والأفكار والذكريات تضج بها أعماق الفتاة ، جموع من العجائز والصبايا والفتيات يزدحم بهم بيت "سالمة" .

إحدى العجائز نادت :

- تعالن نحنِّي العروس!

أسلمت سالمة يديها وقدميها للعجائز ، أغمضت عينيها فيما بدا أنه حياء العذارى ، لكن سالمة شاءت به الاختلاء إلى الذات ، الانصراف إلى الرؤى ، التلذذ بالحلم ، الابتهاج بالفرح القادم ، بدر العريس الفارس الذي سينطلق بها في رحاب الأرض نحو الانعتاق من قيود العبودية والعزلة والانتظار ، الخلاص لا يمكن أن يأتي من وراء البحر ، الخلاص يجيء من الجنوب من وراء الكثبان ، يصدح بأهازيج الفرح والمرح .

- العروس رقدت!!

علَّقت داهية عجوز خبيرة بدقائق أمور العرائس مداعبة سالمة .. ابتسمت ، كست ملامح الوجه بقناع الحياء .. الأمر الذي يتطلبه الموقف .. رفع جفنا العينين الأهداب فبدتا نجلاوين لا تشوبهما إغفاءة ولا سِنةٌ من نوم .. تضاحكوا مدركين وجه إحدى رفيقاتها بدا وضاءً باسما مقبلاً ، وشوشت سالمة في أذن البنت :

- في يوم زفافي غداً سأرتدي ثياب عرس أمي .. العبروق .. رداء الحرير البني الغامق ، القمجة ،

الشملة .. سأتزين بحلي أمي الفضية : الخلخال والدبلج والعقود ، جدائل شعري ستفترش كل ظهري ، سأتفوَّح بماء الزهر والياسمين والقرنفل و ..

انتبهت سالمة إلى عيون وآذان العجائز تتلصص على الوشوشة ، تسترق السمع في فضول مريب ، زجرت العيون والآذان بالصمت المفاجئ ، لكن البنت اعترضت تهمس :

- الثياب قديمة وتبدو غير لائقة!!

ردت سالمة بصوت خافت :

- إني أعوذ بالقديم وأجده لائقاً .

جاء الغد في موعده ، أقعى الرجال الجمل ، نصبوا الكرمود على ظهر الجمل وزيَّنوه ، حُمِّل بمقتنيات سالمة ، علت زغاريد النسوة ، غمر البخور كل الأرجاء ، خرجت سالمة تتهادى وسط الرفيقات ، حملت وأجلست في الكرمود ، اصطفت الفتيات على يمين وشمال الجمل بما حمل ، تقدَّم رجال صف الجدعان أمام الجمل ، لكز الجمل فنهضت به قوائمه المتينة ، اقتيد فخطا لكن الشائب "نوح"

أوقفه وطرح كبشا على الأرض يذبحه احتفاءً بانتصار الصبر وتحية حب للقرية في يوم العرس ، استوقفه أحد الكهول :

- يا نوح أنت رجل رقيق الحال ونحن نعرف أن هذا كبش عيد الأضحى .. القرية قبلت التحية .. خذ كبشك!

استاء الشائب نوح ؛ إذ علا صوته وتهدج :

- الضحية في العيد سُنَّة ، أما في يوم عرس القرية فهي فرض .. الأرزاق على الله .. الله أكبر ..

ذبح الشائب نوح الكبش وتقاطرت دموعه تمتزج بدماء الذبيحة فرحاً ، واختلطت الزغاريد بالتكبيرات ، ومضى الموكب يختال زاهيا حتى توقف الزجَّال والتفت فالتفت صف الجدعان الذي يتقدمه فصاروا في مواجهة الكرمود ، صاح الزجَّال بصوت عال :

- الزم رحيلك .

توقف موكب العرس ، جلس الزجَّال على الأرض القرفصاء ، ركبة ونصف الركبة ، شرع يلقي أزجال الحب والانتماء حتى إذا ما فرغ تناول بندقية صوَّبها نحو الأرض

وأطلق رصاصة تؤذن بانطلاق الموكب في اتجاه بيت العريس ، استدار وصف الجدعان يتقدمون موكب الفرح ، زغردت الفتيات مباركات اكتمال مراسم الزفاف ، تغنَّت صبايا صادحات مجلجلات ، دمعت عيون عجائز متحسرات على ما مضى فرحات بما أتى .

انتصب الأب تحت الكرمة العتيدة في أنفة وانتماء ملوحاً للكائن الهلامي الشاخص عند نقطة تطابق البحر والسماء .

- ارحل .. الفرح يجيء من وراء الكثبان .

طرابلس 2011م

الصخرة

مرموقة تفاصيل الجسد النبيذي المكتنز متى تلكأت أو توكأت أو تطوح الشعر الهاجع على الكتفين عنوة فكادت خصلاته أن تخفي عينين نجلاوين مكحولتين بجرأة الصبا وإقبال الأنثى ، تتثنى فيتضوع العطر نافذا إلى أعماق الروح مناشداً فيك الربيع أن أقبل فلا تقدم وتقبل هي فتقدم الدنيا وتتألق الرؤى وتبقى أنت تخشى التلاقي وترنو أيها الأعشى إلى الارتواء .

انتصب واقفاً مغالباً وهن الجسد ، شد قامته بقوة فطقطقت منه المفاصل تعوق وقفته ، خطوة ، خطوتان ، ثلاث خطوات وركل الباب فتوجع منه القدم لكن الباب انفتح .

- لا تكن أبدا رهين جدران وسقف!

استنشق هواءً منعشاً ، رذاذ مطر خريفي داعب منه الوجه وأوقد فيه رغبة التجوال ، انتشى ومشى يجوب شوارع مدينة دون أرصفة ، يتعثر ، يتخطى غدران صغيرة ، يلوذ بالجدران حيناً أو لا يلوذ ، تطوف عيناه في

كل الأرجاء ، كل أنحاء شوارع المدينة تزدحم بحكايات حب وذكريات غضب وثورة وانتماء ، وصداقات ومواقف وعلاقات برجال رحلوا وآخرين على وشك الرحيل .. لجأ إلى البحر شأنه في سنوات الصبا ، إلى حيث تلك الصخرة القائمة على بعد بضعة أمتار من اليابسة في موازاة فندق "برينيتشي" وما أن بدت له وقد أعطى الفندق ظهره حتى عادته الليالي الصاخبة المقصورة على الغرباء والأغنياء في الفندق المتألق الأضواء ، أما هو ومن شاء من أصدقائه متى التقوا فيخلعون أحذيتهم ، يرفعون سراويلهم إلى ما فوق الركب ، يخوضون مياه البحر ثم يلوذون بالصخرة ، جزيرة صغيرة وسط البحر ، يتحاشون نتوءاتها ، يفترشون مدرجاتها المتعرجة كيفما اتفق ، يتجرعون رشفات حارقة بنكهة كمونية نافذة ، يمتصون قطع ليمون قارص في لذة دامعة ، يتبادلون أنصاف لفافات التبغ وحكايا العشق ، يصدحون بأغاني بومدين والشعالية وصدقي حتى تقوم الساعة فيؤبون مبللين سعداء .

بدا له وقد وصم الزمن وجهه بتجاعيد لا تظهر إلا لعينين تجوسان التفاصيل ، تساقط بعض شعره ، إعوجَّ

ربما قليلا ظهره ، لكنه "عطية" الحليق الأنيق الضحوك الساخر أبدا .

تداعت مشاهد وأحداث ووجوه أحس وكأنه يحياها ويلقاها في التو متألقة صاخبة ، متدفقة ، بهية وكأنما الأمس أزاح يومه وحل في حينه .. اغرورقت عيناه ، تعثر ، شده عابر من يده :

– حفرة .. كدت أن تقع .

تمتم :

– لا تقلق فكم تخطيت من حُفر يا صاحبي!

انتبه ، لم يكن العابر صاحبه ولم يكن ليقلق ، كان عابراً ومضى .

بدت الصخرة ضئيلة مفتتة ، تآكلت بفعل المد والجزر والعواصف والأعاصير والأمواج ، وبدا الوصول إليها موحلاً ، هزَّه المشهد المفجع الحزين .. ليته ما مشى ولا سعى تسبقه أشواقه إلى معلم عصيٌّ على الذاكرة أن تمحوه .

عاوده "عطية" هلاميا يبدو فوق الصخرة مُلوِّحاً وكأنه يدعوه إليه تماماً كما كان يفعل أيام الصبا ، تتالت

حكاياه عن "حليمة" .. يرويها في شفافية ، في عشق بكر ، في همس .. منفعلاً حتى حدود البكاء .

سأله :

- كيف هي؟! .. حليمة على ما أذكر!!

تأوه ، ربما طفرت عيناه دمعتين إذ اغرورقتا عندما التقتهما عيناه العائدتان من ملتقى البحر بالسماء في لوحة نبيذية فيروزية التألق خريفية البهاء .

أجاب :

- حليمة شاخت ثم ماتت منذ سنوات!

- ... ...

- أنت تذكر حليمة بالتأكيد .

- طبعاً .

استدعت الذاكرة "حليمة" ، فيما كان "عطية" يتحدث همساً ، لم يكن ليسمعه إذ تتلاشى الكلمات متى صخب البحر أو عصفت رياح الخريف ووهن السمع ، لكن "حليمة" حضرت في التو ، وكأنها كانت على أعتاب الدعوة في انتظار النداء ، تلك الفتاة المتمردة الجريئة لم تكن ملحوظة الجمال لكنها كانت شهية تماماً كما لو كانت فاكهة

برية أنبتها الشيطان فنمت وترعرعت وكبرت ونضجت شأن فواكه الأدغال تنتظر قطفاً آنيًا ، أنثى تمتلك زمام أنوثتها تصوِّبها نحوك متى شاءت وتمنعها عنك متى أرادت ، لكن "عطية" أوقعها في حبه كما قيل أو ربما شأن ما يحدث بين ذكر وأنثى في سني المراهقة فلا يتعدى الوجد ما تقرره الرغبة والاشتهاء .

تلاشى "عطية" وغاب فيما وراء الصخرة من أنحاء البحر ، وبدا له أن ما لحق الصخرة من ضآلة وتفكك وتفتت وتآكل قد لحق به ؛ فالعظم نخره الكبر ، واللحم اهتراه الزمن ، والجسد اعتراه الوهن ، والغد يبدو محفوفاً بالاحتمالات .

- ... وكم تبقى من الزمن؟!

أصاب التساؤل منه القلب الواجف ؛ فدق دقات سريعة ذات اضطراب ، وسرى في حبل الوريد دم ساخن دافق وخشي إذ تعثر من هزة تطيحه فتأتي على ما تبقى من الزمن ، وتراءت له عينا الطبيب واسعتان تتلصصان من وراء عدستين مقعرتين ووجه منشى فيه طول بفم واسع ذي أسنان تتأهب للوافد الذي يليه .

- كم عمرك؟
- ستون .
- ربما أكبر؟!
- الله أكبر .
- أتمارس رياضة المشي؟
- لا .
- أتأكل اللحوم الحمراء؟
- كل اللحوم .. بشراهة .
- والتدخين؟
- نعم .
- و ... و ... و ...
- نعم .

مطّ الطبيب شفتيه تأففاً أو تعففا ، أرقده على ظهره ، نقر بقادوم صغير ركبتيه وقدميه ، جاس بيدين باردتين في أنحاء الصدر والبطن ثم الظهر .

- شهيق .. زفير .. بقوة .

أنصت بسماعته الطبية ربما لدقات القلب ، ثناه فانقلب على جنبه ثم جنبه الآخر ثم :

obeikandl.com

- انهض .

قال الطبيب :

- تقلع تماماً عن التدخين .. تقلع تماماً عن أكل اللحوم الحمراء .. تقلع تماماً عن الركوب ..

قاطعه :

- أي ركوب؟!

أجاب الطبيب في خبث مغلف بابتسامة :

- كل الركوب : السيارات .. المصاعد .. امش .. استخدم قدميك ، وتقلع تماماً عن السهر ، وتقلع تماماً عن الغضب وتقلع تماماً عن الفرح .. لا انفعالات .. أفهمت؟!

وبدا في حضرته ، وكأنما هو طفل يؤنبه معلم لكنه تجاسر متسائلا :

- إن فعلت؟!

- أضمن لك بعون الله ، أن تعيش مائة عام .

نهض تاركا الوصفة على طاولة الطبيب ومضى إذ ما جدوى المائة عام إن أقلع ، ثم إنه سيقلع ذات يوم شأن كل المخلوقات وما دام الإقلاع وارداً فلا يهم كم تبقى من الزمن .

إن جسده القادم من دفقة ماء مهين والآيل إلى كومة من اللحم والعظم والغائط والبول والعفن يتغذى عليها في حفرة دود التراب حتى الاهتراء ذات يوم .. إن جسده هذا ليس هو ، هو حبيس جسده ، هو ذلك القابع في أعماق هذا الآخر ، هو الروح التي أضناها الجسد وكبح رغباتها في كل متع الحياة .

تمرد ، استنشق بكل قوة هواءً توضأ بماء البحر فتطهر وغمر أعماقه برداً وسلاما فأيقظ فيه الروح عفية تصبو إلى مباهج الدنيا كما الله شاء .

انتظمت دقات القلب دون اضطراب ، وسرى الدم في حبل الوريد كما في الصبا ، وكم تبقى من الزمن أمر لا شأن له به فذاك شأن يخص الجسد أما هو فسيبقى موجوداً لا يخشى الفناء .

دقَّ الأرض بقدمين صلبتين ، خاض المسافة القصيرة الموحلة من البحر إلى الصخرة ، قعد ، رذاذ مياه المطر ورذاذ أمواج البحر داعباه في طقس خريفي بديع ، وإذ اشتد المد والجزر بدت الصخرة تلتئم وتتصدى للأنواء .

أولع لفافة ، رشفات حارقة بنكهة كمونية تعبق بها الأجواء ، الليمون القارص يطفئ اللهيب المستعر في الفم والحلق والأمعاء ، أصداء أغاني الشعالية وبومدين وصدقي تتناهى إليه من كل أنحاء المدينة ، هلامية تراءت له قبالته مرموقة تفاصيل الجسد النبيذي المكتنز المخفور بثوب أبيض ذي شفافية تتيح حتى للأعشى أن يرى ما يرى ، تطوَّح الشعر الهاجع على الكتفين فلامست خصلاته شفتيه ، غرزت في عينيه عينين نجلاوين مكحولتين بجرأة الصبا وإقبال الأنثى ؛ فأصابت منه الروح ، فتياً احتواها فاحتوته وتقهقر الزمن مدحوراً عقوداً إلى الوراء ، انتشى ، غمره الدفء وغاب ، وغابت في أتون التلاقي حتى أقصى حدود الارتواء .

بنغازي 2010م

احتقان

ميدان سوق الحوت معلم المدينة الأشهر ، سُرة بنغازي القديمة ، مهجع التاريخ ، موقع الحدث ، مصدر الأخبار ، ذاكرة العصر ، فضاء الوجوه العريقة ، ساحة الوجوه الشابة القادمة من الشوارع المتفرعة من الميدان ، ومن الضواحي والوافدة من كل الأنحاء ، نبض الحياة متدفق في عشيات رمضان ما بين العصر والمغرب ، يتأطر المشهد في لوحات تزدحم بكل ألوان الطيف والبشر والخضراوات والفواكه والمعلبات منتهية الصلاحية ، والهريسة* ، والحلويات وخبز التنور وألعاب الأطفال والألعاب النارية التي لا تكتفي بمداعبات مدوِّية للصائمين متى فرقعت بل تمتد آثارها إلى أسراب الذباب الأليف المكدس على جوانب عربات الباعة فينزعج ويطير ثم يحط ثانية غير مكترث ولا آبه .

درجتُ على قضاء سويعة على الأقل في كل عشية من عشيات رمضان أتجول في ميدان سوق الحوت حيث

* الهريسة : طحين فلفل أحمر حار معجون ومتبل .

ربما ألتقي بأصدقاء قدامى ، بوجوه ألفتها وآلفتني ، ثم شاء قدري أن أختفي فاختفت لكن ما أن نتواجه حتى تتعانق العيون وتمرح الذاكرة في رحاب سنوات سمحة كانت مضت .

تعثَّر فكاد أن يقع لولا عكازه ذلك لأنه شُرع منذ سنوات في رصف ميدان سوق الحوت فتم حفره وتكويم الأتربة والحجارة وشقف الإسفلت مما أدى إلى إصابة أنابيب المجارى والمياه المهترئة فتكونت نُقر وبرك صغيرة ذات رائحة عفنة تشتد متى لفحتها الشمس وتتلاشى متى عصفت هبة ريح عاتية دفع بها البحر صوب الميدان فتكون برداً وسلاماً على الصائمين .

بدا غاضبا يحاول الرؤية بعينين نصف مغمضتين تتقدان سخطاً متى جحظتا بين الحين والآخر ، وجه كالح أشيب غير حليق نالت منه التجاعيد فخشيت غضبته إن أقدمت نحوه ذلك لأن الأستاذ خالد كان معلمي في مدرسة الأمير ولا أملك إلا أن أتحول في حضرته إلى مجرد تلميذ شأن كل أبناء جيلي في حضرة معلميهم .

فضَّلتُ أن أتجنبه لأعود إليه بعد حين فيما مضى متوكئا على عكازه يعرج وقد دس قدميه في نعل مطاطي

خشيت على قدميه منه إن وطأ في غفلة على حجر مدبب أو نقرة تختبئ في جوفها قطعة زجاج حادة أو مسمار ، لكن الأستاذ خالد كان ينتقي موقع خطواته بحذر وقد رفع جلبابه بيسراه لانشغال يمناه بالعكاز .

تألمتُ كثيراً وقد عادني ما كان عليه معلمي منذ عقود ، ذلك الفتى اليافع الوجيه الأنيق الثري الفخور بعائلة عريقة وثقافة غزيرة وطموح متأجج في بناء وطن يليق بالوطن ومستقبل يرقى بالحياة إلى أوج التقدم والازدهار والنماء .

أفقت على دوي فرقعة وقد اندست وسط زحام الباعة وجموع تتدافع بقوة وشراسة وغضب ثم لا تلبث حتى تشتبك ورجال شرطة تلقي القبض عشوائياً على شباب يقاوم فيتمكن منه رجال الشرطة ويلقون ببضعة منه في صندوق سيارة القبض .

- ليلتهم فل!!

حاولت أن أتبين مصدر الصوت فلم أفلح ، انسللت خائفاً من ليالي الفل ، نالني شيء من التدافع فجابهته بكل ما أوتيت من كهولة ونفذت إلى ما بين أقواس سوق الحوت .

- السوق أكو .. الحوت ما كاو!!

وجدتني في مواجهة الأستاذ خالد يقتعد وجُلساء إحدى دكتين كانتا ارتداداً لجدار سوق الحوت تقعان على جانبي الباب الرئيسي المقفل .. حييته ، خزرني ، خشيته ، بدا متوجساً حذراً ، استبقته قبل أن ينطق .

- كل عام وأنت بخير يا أستاذ خالد .

تململ أحد القعود وفحَّ :

- غيّمت!!

لم يجب الأستاذ خالد ، ولكن حدقتيه اتسعتا فبدتا طافيتين شرستين في آن .

- أنا ..

- أنت ..

- نعم .

- سامحني .. ذاكرتي ذاكرة دجاجة .. كل أولئك الذين تراهم في الميدان دجاجات .. ليس في الميدان إلا ديك واحد لا نراه لكنه ينكح كل الدجاجات فتبيض .. أليس من مأثور القول أن الدجاجة تبيض؟!

صمت إزاء خجلي ثم أضاف :

- ماذا تفعل هنا؟!

شئت أن أمازحه :

- جئت لأشتري سمكا من سوق الحوت .

- ألم نقل .. سوق أكو .. حوت ماكو!!

تضاحك جلساؤه ، أخلوا لي مكاناً بينهم ، فرحت كثيراً بصك الانتماء إليهم ، رجال تزدان ملامحهم بالعفة والأنفة والكبرياء رغم كل البؤس والفقر والمعاناة .

- هات ما عندك .

- كنت معلمي في مدرسة الأمير .

- كنت .

- نعم .. أما الآن فأنت أستاذي .

سألني :

- معلم؟!

- لا .. موظف .

- عند الحكومة؟!

نبر أحد الرجال باعتراض على سؤال الأستاذ خالد :

- طبعاً .. لا بد أن يكون موظفاً عند الحكومة ..

بدا واضحاً أن الأستاذ خالد شاء أن يستفزه فعلق ممازحا :

- ربما .. أعمال حرة!!

انتبه الرجل إلى محاولة الأستاذ خالد استفزازه فنهض يجوب بعينين وجلتين أرجاء الميدان ومضى .

- مجنونة يا قوطة .. مجنونة يا قوطة .

علا صوت الأستاذ خالد :

- هنا القاهرة!!

أعجبت بكيف مضى بنا الأستاذ خالد بمداخلة ذكية إلى أجواء دعابة جعلتنا نغرق في الضحك ، ربما أيضا كنا نفتش عن سبب ينتشلنا من أجواء التوتر .

أقبل بائع الطماطم يدفع عربته مبتهجاً ، توقف قبالتنا ، توجه إلينا بالتحية :

- سلام يا معلمين؟!

مضى دون أن ينتظر رد التحية ، بدا جدلاً وكأنما الفرح يسوقه إلى مغنم ، ينادي :

- طماطم إيه .. فراولة والله فراولة .

بدا لي أنه من الأفضل أن أغادر المكان فكاهلي الواهن لا يقوى على احتمال أثقال المشهد المحتقن ، وإن هبَّت نسمات طرية تعبق برائحة الفراولة .

نهضت ، استأذنت ، صافحت الأستاذ خالد مودعاً مخاطباً كل الجلساء :

- كل عام وأنتم بخير .

رد الأستاذ خالد :

- ربما ..

ابتعدت عن بؤرة الاحتقان ، تمعنت حديث الأستاذ خالد عن الدجاجات ، كدت أنزلق إلى قاع اليأس ، لكن ليس كل ما تبيضه الدجاجات من بيض يحط على الموائد مقليا أو مطبوخاً ؛ فقانون البقاء ينص على وجود دجاجات حاضنة يفقس بيضها كتاكيت صغيرة مقدمة على الحياة لا تلبث حتى تكبر وتصير ديوكا شرسة تؤذن للفجر ذات يوم . لكزني مداعبا :

- أستاذ .

كان سعد ، رفيق الصبا الذي لا ألقاه إلا لماماً ، يمتاز

بروح مرحة وأحاديث مشوبة بالحذر ، توقف طموحه عند مدرس ، اكتفى من الحياة بالقليل .

- لماذا يا سعد؟!

يجيب دائماً :

- من توهج احترق .

- ربما ..

كنت أسأله :

- ولكن مدرس يا سعد وأنت من أنت ..

- أشرف عمل .

صافحته ، ودوداً مقبلا ضحوكا شأنه دائما .

سألته :

- أخبارك؟!

- حصان حكومة!!

- يعني؟!

- متقاعد .

- لماذا؟!

- لكي أموت قاعداً .

ابتسم مترقباً ، قلت :

obeikandl.com

- لكنك دون سن الـ ..

قاطعني :

- قُلِّصتُ!!

توقفنا عند شاب عفي تنبئ بنيته وملامح وجهه بأصالة وانتماء إلى أسرة عريقة ، وإن وشت ثيابه الرثة بغير ذلك ، يقف منتصب القامة أمام طاولة خشبية تحمل طنجرة كبيرة مليئة بالهريسة مغطاة بقطعة شاش شفافة لم تحل بين روائح توابل خلطتها الفواحة وأنفاس المتحلقين فتذكي في النفوس شهية ورغبة ملحة في الشراء .

- أريد نصف كيلو .

علق سعد :

- وحم الرجال في رمضان!

ناولني الشاب كيساً بلاستيكيا مملوءًا بالهريسة بعد أن كان وزنه بميزان يدوي دقيق .

- كم؟

- خمسة دنانير .

- خمسة دنانير؟! .

- نعم .

مد يده بنقودي إلى كفيف أهتم نحيل مجلبب كان يقتعد كرسيا صغيراً بجواره .

قلت :

- يبدو وجه الكفيف مألوفاً!

ضحك سعد :

- سنوات الغربة أنستك الناس يا ابن الناس .. هذا الرجل هو الشيخ محمد ، إمام مسجد .. واعظ مقرئ ، أما الشاب فهو ابنه جمعة خريج الاقتصاد والعلوم السياسية منذ ست سنوات .. دون عمل!!

عاودني حديث الأستاذ خالد عن ذاكرة الدجاجة فتحديته ورحلت عبر ستة عقود أفتش في ثنايا الذاكرة حتى حطيت في مدرسة الأمير لألتقي الشيخ محمد طالباً نجيباً ورعاً سبَّاقاً إلى النجاح والتفوق .

قلت :

- تذكرته .

قال سعد :

- هي سنوات الغربة ، ثم إن الشيخ محمد خلع الجبة والقفطان والعمامة منذ فصل عن العمل .

- لماذا؟

- وشى به مخبر عندما زلق الشيخ في كلمة واحدة أثناء خطبة ذات جمعة .. أوقف ثم أخلي فصار رهين المحبسين .

تراجعت إلى الخلف كي أدور وأمضى مع سعد نحو وجهة أخرى فاصطدمت بجسد عملاق ، تماسكت :

- عفواً! .

عندما طالت عيناي وجهه ، باسمته في حذر :

- كيف الحال؟

كان أحد أقدم مخبري المدينة : وجه كالح ، عينان تتذاكيان ، طاقية تخفي جزءاً من صلعته وبعضاً من شيب رأسه ، أذنان كبيرتان تتلصصان مثابرتان على التصنت .

- الحمد لله .

قال ثم أضاف :

- تبحثان عن محبسين؟! المحابس لا تباع هنا عليكما بمحال الأدوات المنزلية .

المخبر الذي كان جاري يتنصت عليّ لكنني جاملته ، أسرته بخير وأولاده بخير وصحته بخير . سألته :

- تقاعدت؟

- بعد عام ، برتبة ملازم .

تأوه يستدرجني :

- الترقيات بالواسطة .. تصور ..

لم أتصور إذ التفتُّ فلم أجد رفيقي ، يبدو أن سعداً قد فلت ، استأذنته مقاطعاً ، فتَّشت عيناي عن سعد فلم ترياه ، توجهت نحو طفل يجلس أرضًا إلى قفة كبيرة مغطاة بمنشفة تكاد تكون نظيفة .

- فردة خبز التنور .. بكم؟

- دينار .

- دينار يا كفار!!

صرخ الرجل الجلف معربداً ، بدت سطوة السلطة في نبرته ، رفع الطفل إليه عينين ذليلتين مرعوبتين تتوسلانه ، تحلَّق حوله نفر من الشباب بدا أنه ينتوي ضربه ، قال أحدهم :

- تفضل .

- فردة خبز التنور بدينار!

- نعم .. خذ وإلا .. امش .

توتر الموقف ، اخترق الحلقة شائب وضع يده على كتف الطفل ، خاطب الرجل :

- طفل يتيم يتعيَّش وأمه من بيع خبز التنور .. أسعار البيع في الميدان أقرب إلى الصدقة منها إلى التجارة و .. كل هؤلاء الشباب .

قاطعه الرجل متعجرفاً :

- شحاذون!

دفعه أحد الشباب بقوة فاجأته ، ارتد الرجل إلى الخلف فكاد يقع ، تراجع أكثر مهزوماً ، عيناه تنذران برد فعل وشيك .

ابتعت من الطفل المرعوب ثلاث فردات هي كل ما تبقى في قفته ، طلب إليه الشائب أن يغادر ففعل ، تفرق من حوله كل إلى غايته ، مشيت نحو ركن الثقافة الواقع في ارتداد مواجه للجامع ، شرعت أتملى معرض صور بنغازي القديمة وأهم رموزها التاريخية ، أتفحص أكداس الأشرطة النادرة المصفوفة على صناديق مسندة إلى الجدار ، باغتني صوت سعد :

- ذاكرة المدينة .

سألته :

- أين اختفيت؟!

لم يجب ، تضاحكنا ، قال سعد :

- هذا ركن موسمي .. رمضاني .. يلقى إقبالا كبيراً من الناس .. قد تلاقي فيه ما تبحث عنه ، صور تاريخية أبيض وأسود .. انظر .. هذا سوق الظلام .. ميدان الحدادة .. سوق الجريد .. الفندق .. ميدان البلدية .. المسجد العتيق ، مقهى العرودي .. ميدان سوق الحوت ، عساكر الطليان ، عساكر الإنجليز .. عساكر الألمان ، خلال الحرب العالمية الثانية وخلال الاحتلال الإيطالي .. انظر .. هذه صور رواد الأغنية الليبية .. الشعالية .. حسن عريبي .. بومدين .. صدقي .. وهذا سيدي عمر يقف مغلول اليدين بين العسكر قبل شنقه ..

قاطعته إطلاقات مدوية ، ضجيج ، صراخ .. لاح باعة متجولون يدفعون جريًا بعرباتهم في عشوائية صوب اتجاهات مختلفة يلاحقهم أفراد من الحرس البلدي كانوا

سدوا منافذ الميدان بسياراتهم ، خطونا بضع خطوات وانحرفنا قليلا إلى اليسار حتى صار الميدان في مرمى النظر ، كان خاليا ، فوجئنا باشتباك مباغت أمام الجامع بين نفر من الباعة ونفر آخر من الحرس البلدي ، بدا ذلك الرجل عند الناصية ممتطياً سطوة السلطة ، يرقب في غضب وحذر شديدين الاشتباك .

لقيتني وإياه جنباً إلى جنب ، قال المخبر يحدثني :

- صيَّع .. لا رخص .. لا شهادات صحية .. لا تسعيرة .. معلبات منتهية الصلاحية ..

قلت مهادناً :

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

نصحني المخبر بالانصراف :

- توكّل .

- هيا يا سعد .

سعد كان قد فلت ، جابت عيناي الميدان فتراءت لي على بعد سويعات ، ديوك بكل ألوان الطيف تؤم المكان ، والله أكبر تنطلق عاتية مجلجلة من مئذنة الجامع تبشر الصائمين بانقضاء يوم الصيام ، هاتفت البيت كي أبرر

تـأخري ؛ فبـدت علـى شاشـة الهـاتف المحمـول كلمـة : "انتظار" ..!

بنغازي 2009

obeikandl.com

يا أسيادي

- يا أسيادي .. يا أسيادي .

جاءته المناداة من صبية يتلهون خلفه ، انتفض رغم كاهل أوهنته أعوامه الستون ، تعثر ، توقف ، دق الأرض بعكازه ، رفع إلى السماء عينين أعشيين ، حشرج فيما يشبه الاستغاثة :

- عليكم النّادي .. عليكم النّادي!

ضج الصبية من ورائه بالضحك ، تصايحوا ، تحلّقوا حوله ، عاودوا مناداته في استخفاف :

- يا أسيادي .. يا أسيادي!!

اخترق الرعب العينين الأعشيين ، بللت الحدقتين دموع تشخّص أحيانا من عارفين برمد مزمن أصاب العينين الكليلتين منذ الطفولة وتُعزى في أحيان أخرى إلى الشيخوخة وتوابعها الحتمية . شد "أسيادي" بكلتا يديه عكازه خشية أن يلتقطه أحد الصبية ، اعترته الحالة التي تنتابه كلما نودي أسياده وهي حالة شُخِّصت من قبل العارفين أيضا بأنها نصف غيبوبة أو مراوحة بين الغيبوبة

واليقظة أو ما شابه ذلك لأن "أسيادي" لا يقع بل يظل واقفاً متماسكاً .

في كل الأحوال لا يجوز الاستنجاد بالأسياد منه إلا لأمر جلل من شأنه أن يؤذيه أو ربما يؤدِّي به إلى عالم الأسياد .. والصبية العابثون لا يدركون خطورة ما يمكن أن يحدث لو استجاب الأسياد للاستدعاء وهم غالبا ما يلبُّون استغاثات "أسيادي" لكن الشياب القاعدون على الصناديق الخشبية والكراسي المتهالكة المتناثرة أمام الدكاكين يعون تماماً هول ما يمكن أن يلحق بكل من يحاول الاستخفاف بالكهل الغامض أو إيذائه ؛ فـ"أسيادي" مسكون ، يقولون مكشوف النظر ، يرى ما لا يراه سائر البشر ، الدليل كما يؤكد كل الشياب أن خطواته وئيدة غير متزنة فيبدو في مشيته كما لو كان يتجنب الاحتكاك أو الارتطام بأشخاص غير مرئيين ، بل إنه قد يتوقف عن المشي ويبدو منصتاً لأصوات يعجز الشياب عن سماعها رغم كل ما حباهم الله به من قدرة على التصنت رغم تقدم العمر ، لكنه ، أي "أسيادي" يبدو عندما يباشر مجددًا مشيته كما لو كان يبتسم وإن أوشت شفتاه السوداوين المتيبستين بشروع في بكاء لا يبدأ لكنه يتصل .

- يا أسيادي .. يا أسيادي .

زفر متأوها :

- عليكم النّادي .. عليكم النّادي!!

ومضى .

"أسيادي" رجل بلا هوية ، دون اسم لا يحمل أية أوراق ثبوتية ، لا يعرف أحد متى وفد ، اعتادوه ، تعارف الناس على مناداته بـ "أسيادي" همساً خشية أن يصل صدى المناداة إلى الأسياد عن غير قصد فيهرعون ، وحتى عندما شك في أمره مخبر بدعوى أنه جاسوس وربما أيضا إرهابي ، وطلب أوراقه الثبوتية للاطلاع عليها رغم أمِّيته تصدى له الشياب :

- خلّ "أسيادي" في حاله .

"أسيادي" كهل رث الثياب دائماً ، يرتدي صيفاً وشتاءً معطفاً عسكريا كلح لونه الأصفر فمال إلى البياض المشوب بسواد الاتساخ ويبدو - أي المعطف - كما لو كان معلقاً إلى مشجب . فـ "أسيادي" قصير القامة ضئيل الجسد هزيله بينما المعطف واسع فضفاض يتسع لاثنين في ضآلة "أسيادي" .. يقولون :

- جلد وعظم!!

يقولون أيضا :

- إن أكبر ما فيه رأسه ذو الطاقية الحمراء الكالحة هي الأخرى المؤطرة حوافها بسواد لزج كما القطران ينفث رائحة كريهة ناتجة عن اختمار العرق والأوساخ ، لكن الخبثاء يرجعون الرائحة الكريهة النتنة إلى إبطين عفنين فالرجل لا يتسنى له الاغتسال في ضريح المرابط القائم في طرف المقبرة باعتباره قيماً على الضريح إذ يكتفي بالاندساس فيه ليلاً والتجوال نهاراً في شوارع الحي حتى إذا ما أرهقه التطواف اتكأ تحت ظل جدار على رصيف ، أيضا ، لم يحدث أن رآه أيٌّ في الجامع متوضئا أو مصلياً حيث يمكنه أن يغتسل ويتطهر .

- أسياده أشرار!!

يقول همساً في حذر رجل مسن خلع عليه الناس صفة "فقيه" رغم أنه أميّ ولا يحفظ القرآن الكريم ويخطئ في تلاوة ما يحفظه من بعض آياته ؛ مما جعل المصلين يمتنعون عن الصلاة من خلفه لكنه لا يفوته وقت من أوقات

الصلاة حتى في الفجر عندما يكون البرد شديداً والسماء مبرقة مرعدة ممطرة والمصلون قلة ، كان يُبكر بل تجاسر ذات فجر فكاد يؤذّن لكن المؤذن المتأخر جاء مهرولاً ونهره ومنعه بغلظة .

- أسياده شريرون!!

يردد ثم يستطرد :

- الأسياد هم خليط من الجن والشياطين والأرواح ذكوراً وإناثا ، شخوص غير مرئية لكنها موجودة ، الشرير منها يلبد في الكنفان والمجاري وخزانات المياه السوداء العفنة والآبار الجافة المهجورة وهذه تتلبس الإنسان وتؤذيه أما الخير منها باستثناء الشياطين فلا يلتبس الإنسان ولا يؤذيه بل تجده في أعلى العليين يسبح ويسبّح في ملكوت الله الرحب إلى يوم الدين .

تشوب صوت "الفقيه" بحّة مكتنزة ويبدو عند طرفي فمه زبد ولعاب لكن الخوف يغشى المنصت فيتمادى هو :

- الشرير أو الشريرة من هذه الشخوص قد تتلبس رجلا أو امرأة كما حدث مع بنت الزروق ،

شابة ، جميلة كانت تنام شبه عارية ، الدنيا حر .. الله غالب ، مر بها أحد فتيان الجن الأشرار ، عشقها ، تلبسها ، ضاجعها فصارت زوجته وفق نواميس الجن "أسيادي" أيضاً ؛ تنصتوا أمام باب الضريح ليلاً ستسمعون صوت امرأة ، أصوات أطفال يلعبون ، مؤكد ، مؤكد ، "أسيادي" متزوج من جنِّية .

- فكُّونا من موال "أسيادي"!

صرخ شائب بدا في عينيه ذعر ، واستوعب الحاضرون صرخة الشائب فكل الشواهد تدل على أن أسياد "أسيادي" إذا ما اشتد بهم الغضب يفتكون بالمغضوب عليهم والضالين ؛ فسالمة بنت المحجوب التي دلقت جردلا من المياه القذرة عند مرور "أسيادي" من أمام بيت آل المحجوب توقف نموها عند سن العاشرة ذلك لأن "أسيادي" ضغط بكف يده على رأسها رافعاً عينيه نحو أسياده غير المرئيين السابحين آنذاك فوق على ما يبدو ، وقد تناثر لعابه مستنجداً :

- يا أسيادي!! يا أسيادي!

الحاضرون تغاضوا عما بدا من خبث في القول بزواج "أسيادي" من جنية تجنباً للخوض فيما يشاع عن علاقة "يزة" بـ "أسيادي" ، وهي أرملة تجاوزت الأربعين ، وإن كانت تبدو أصغر سناً إذا ما شوهدت في عرس ترقص وتلوّح بعصاها في مواجهة صف من الرجال يضبطون إيقاع الرقص بالتصفيق والزجل الذي يتغزل بمحاسن "يزة" ، وبما حباها الله من قدرة على تطويع الجسد وخفة الحركة وبما أغدقه عليها من أنوثة وغنج تثير حمية الرجال فيتبارون في حدة التصفيق وقول الزجل رغم تحجب "يزة" فلا يظهر للعيون الجريئة من كل "يزة" إلا ضفيرتان منسدلتان على الكتفين يتراقص على بعد شبرين منهما ردفان مكتنزان يثيران كثيراً من التصورات غير السوية في أذهان الرجال خاصة إذا ما انتظمت حلقة الرقص في ليالي الصيف المقمرة .

رغم كل هذا لا يمكن لأي كان أن ينال من "يزة" فهي أرملة شريفة عفيفة تعول ثلاثة أيتام ، تخدم سائر الأيام في البيوت بأجور زهيدة وتخدم في الأعراس والمآتم بأجور مجزية وإن كانت أجور المآتم أكثر وفرة إذ تمنح على سبيل

الصدقة وتحديداً في الأيام الأولى للوفاة عند ذروة اشتداد المشاعر الدينية والإنسانية ، لكن "يـزّة" امرأة مرحة فهي تميل للأفراح وتحبذ الرقص والطرب حتى إن عجائز نقلوا عنها أنها تقول :

- ساعة طرب تساوي ابن آدم وما كسب!

الأمر الذي أثار لغطاً حول ما إذا كان القول من عنديات "يزة" أم أنه من المأثورات الشعبية ، الأمر يحسم عادة في النهاية بأن القول يعبر عن نفسية طيبة تمتاز بها أرملة ودودة وكفى .

المتعاطفون مع "يزة" يعزون ما تبديه من اهتمام بـ"أسيادي" وما تظهره من حنو وعطف نحوه إلى أصالة المرأة وإلى أن كليهما وحيد مشرد لا يملك قوت يومه ولا يعلم ما يخبئ له غده ولا حتى ساعته القادمة .

الخبثاء وهم قلة يرون غير هذا الرأي ويفسرون الإفراط في التواصل بين "أسيادي" و"يزة" بأنه قصة حب مكتملة الشروط ، فالرجل ما لم يكن محترما لا تقوم علاقته بامرأة إلا لغاية يدركها بالحب أو ادعائه أو بالتحايل أو وفق ما اتفق .

- قال لك رجل .. "أسيادي" بضاعته منتهية الصلاحية ، لا يقوم له طرف ولا ينتصب له عضو ، ساقاه مقوستان واهنتان ، ذراعاه متدليان يتأرجحان وكأنهما آيلان للسقوط ، قدماه لا يقويان على حمله ، عيناه ترمشان كي تريا كلما اقتضى الأمر ، قال لك رجل!!

علق أحد الخبثاء مستفزاً السبعيني الذي بدا متهدجاً متحمساً لرأيه :

- قال لك رجل؟ .. طيب اسمع يا رجل أنت!!

قاطعه السبعيني محتداً وقد أصابه القول في رجولته :

- اسمع يا ولد .. ورأس أمك أنا رجل ونصف .

فض الحاضرون الاشتباك الذي كاد يبدأ وانصرف السبعيني يرغد ويزبد وهمس شائب في أذن شائب :

- عشم "أسيادي" .. رجل غريب درويش يغتابونه .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

رد الحاج الصادق بصوت متهدج عال على همسات الشائب :

- لا عشم ولا هم يحزنون .. "أسيادي" مجرد درويش بائس لا حول له ولا قوة ولا أسياد .. أنتم تجدون في الخرافة طرافة فتلوكونها ليل نهار .

الحاج الصادق المدرس المتقاعد لا ينطق بكلمة إلا نادراً ، يجلس إليهم منصتاً دون أن يشارك في أي حوار ، يرونه متعاليا أحيانا ، حكيما في أحيان أخرى ، عبوساً في كل الأحيان .

تجرأ أحدهم :

- اتق الله .. إن "أسيادي" يستطيع أن يسخر الأسياد بمجرد استغاثة .. انظر ماذا حلّ ببنت المحجوب؟ .. ثم ..

قاطعه آخر :

- الحكومة عجزت أمام "أسيادي" .. لم تتجرأ البلدية على إزالة المقبرة وهدم الضريح وإنشاء الحديقة العامة رغم صدور القرار منذ سنوات ، هم يتراجعون متى شرعوا في التنفيذ إذ يتدخل الأسياد بمجرد استنجاد "أسيادي" بهم فتتعطل الآليات ويهنُ العمال ، بل ذات مرة وفي عز أيام

الصيف أبرقت وأرعدت وعصفت وأمطرت مطراً غزيراً اكتسح كل شيء .

تناهى عياط امرأة وأطفال ما لبث حتى اقترب فوقف الرجال يتطلعون في فضول ، كانت "يزة" ومن ورائها أولادها يهرولون ، استوقف الحاج الصادق "يزَّة" فانهارت باكية :

- "أسيادي" اختفى منذ يومين حين علم يقيناً أن البلدية ستهدم الضريح وتزيل المقبرة ، الآن ، الجرافات والرافعات والمعاول والفؤوس والرفوش تملأ المقبرة .. العمال وأفراد الحرس البلدي يدوسون القبور فلا حرمة لأموات ولا لمرابطين و"أسيادي" لم يبن ، أين أنت يا "أسيادي" .. ووك ووك .

تصرخ .. مضت "يزَّة" مهرولة صوب المقبرة ومن خلفها صغارها يثغون ، تنادى أطفال وصبية يسبقون "يزة" جريا ، لحق بهم كهول وشيوخ ورجال ونسوة ، اقتحمت الجموع المقبرة ، كان قد سبق الجموع فضوليون من كل الأنحاء ، ازدحمت المقبرة حتى لا يكاد أحد أن يتحرك ،

طُلب إليهم إخلاء المكان ، لم يستجب أي منهم بل تدافعوا نحو الضريح يتوقون إلى رؤية استخراج رفاة المرابط ، يتوقعون معجزة ، واقعة خارقة للعادة ، عطل يوقف الآلات ، شلل يصيب عامل ، "أسيادي" يقدم محاطاً بأسياده فتجمد الأطراف ويخرس هدير الآلات ، شيء من هذا لم يحدث ، "يزَّة" فقط كانت تنوح وتندب وتشق الجموع بقوة خارقة موسعة مسرباً لأولادها حتى نفذت إلى داخل الضريح ، لم يقو أي من الرجال على صدها ، رفعت عن قبر المرابط الأغطية القماشية متعددة الألوان بقوة فتمزقت ، بان تابوت كبير مهترئ مقلوب يتسع لأكثر من مرابط ، جذبها رجل فصفعته ، حاولت خلخلة التابوت فلم يتزحزح ، ارتدت إلى الخلف عجزاً .. تعاضد رجال أشداء مزقوا حواف التابوت بالفؤوس حتى تخلخل ورفعوه عن القبر ، ذهل الرجال إذ بدا "أسيادي" مفترشاً بطانية متوسدا مخدة قابضاً بيمناه على صرة نقود .. علا لغط وهرج وأصوات :

- "أسيادي"!! "أسيادي"!!

"يزَّة" لم تفاجأ إذ كانت تتوقع أن يلبد "أسيادي" في

مرقده تحت التابوت حيث يؤوب كل ليلة بعد أن يحصي صدقات يومه وينام .

ناداه الرجال :

- يا "أسيادي! يا أسيادي" .

لم يجب "أسيادي" ذلك لأنه كان قد مات منذ حين حتى أن رائحة عفنة عبقت فتدافع الرجال يخرجون ، وقد سدُّوا أنوفهم وسط دهشة وذهول وعياط "يزة" التي التقطت صرة النقود وغطَّت الجثمان بالأقمشة المتعددة الألوان إلى حين جنازة مهيبة في مقبرة أخرى يجب أن تشرع حالاً في الإعداد لها إكراما لـ "أسيادي" رفيق العمر ، أبي الأولاد الذي أفنى حياته بين الأموات من أجل الحياة .

بنغازي 2009م

الأزمة

(1)

يبدو إبراهيم أصغر سناً ، لكنه احتفل الليلة بعيد ميلاده الأربعين رغماً عنه ذلك لأن زوجته المحبة فاجأته عند عودته من الجامع بُعيد صلاة المغرب بكعكة عيد ميلاد مضاءة بأربع شموع وبطفليه الشقيين يصفقان ويغنيان في مرح :

- سنة حلوة يا جميل!
- كل سنوات العمر معك أيتها السيدة الرائعة كانت حلوة ، بهيجة ، سعيدة ، يغمرها الحب حتى حد الحسد ، يحوِّطها التفاهم والوفاق .

قال في خاطره دون أن يبوح إذ غمره الامتنان حتى فاض به فتدفَّق ابتسامة مضيئة ، وعينان ترنوان في حب دافق .

كانت هي قد تهيأت للحفل ، اشتم ذلك عندما أحاطته بذارعها تقوده في رقة إلى الطاولة التي توسطتها كعكة عيد الميلاد ، استحمت وتعطرت وأتاحت لجدائل

الشعر الأسود المسدول على الكتفين والظهر أن يتحرر من أسر الحجاب ، ارتدت القفطان الزهري الضيق ذا المنافذ المتعددة على الجسد المقصور ارتداؤه على ليالي الفرح في البيت .

همس لها :

- ليلة حلوة يا جميل!

أحاط ساقه الطفل الأصغر ، رفعه بكلتا يديه وأوقفه على الطاولة ، تمكن الطفل الأكبر من الوقوف على أحد الكراسي ، بدا المشهد حميما ، كادت عيناه أن تدمعا لكنها عاجلته في فرح :

- هيا ؛ فلنطفئ الشموع . سنة حلوة يا إبراهيم . أف . أف . أف .

تراقص الطفلان ، تبادلا القبلات ، شفتاها مكتنزتان دافئتان ، لم يرقه أحمر الشفاة ، أضاءت الغرفة ، لم يرقه طلاء الخدين ، تثنت فانبعث العطر زكيا قويا نفاذا من تحت الإبطين ونهر النهدين ، انزعج خوفاً عليها خشية أن تداهمها الأزمة لكنه دعا الله أن تكون ليلة فرح استثنائية تمضي دون أزمة .

ناولته قطعة من كعكة عيد الميلاد وكوبًا من عصير البرتقال ، تشاجر الطفلان استحواذاً على قطعة أكبر من الكعكة ، تضاحك الزوجان واقتعدا كرسيين متلاصقين واحتوى كلاهما الآخر في خفر ، أخشى ما خشاه أن يبدد عارض الفرح لكن آذان صلاة العشاء بدد خشيته :

- حسناً سأتوضأ لأصلي العشاء .. أولاً .

نهض واختفى في الحمَّام .

obeikandl.com

(2)

رنين جرس الشقة بدا مدوِّيا ، ربما سكون الليل ، ربما عجلة الوافد ، توجس شراً ، استعاذ بالله من الشيطان ، استاء من نطقه اسم الجلالة في مكان نجس ، استغفر الله في سره ، تنصت ، الباب يُفتح ، طفلاه يهرولان ، يصيحان في فرح :

- خالتي .. خالتي!

زيارة غير متوقعة ، أيضا غير مرغوبة .. اكتسحه فضول غامر ، تناوبته أفكار عدة ، أكمل وضوءه كيفما اتفق .

- مساء الخير .

- مساء النور .. كل عام وأنت طيب .

الخالة الصبية بدت عفيَّة ، طريَّة مكتنزة ، جسد ممشوق متناسق ، أنضجه الربيع العشرون فبدا كما غصن البان يتثنى فتفوح من أردانه رائحة عطر نفاذ ، عينان لا تقاومان متى صوبتا في جرأة صوب هدف نهم .

استعاذ إبراهيم بالله من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدره ، أبدى حفاوة محفوفة بالتوقعات التي

بلغت أسوأها باحتمال أن تبيت الصبية فيحول المبيت دون الاحتفال عملياً بفرحة عيد الميلاد .

صلَّى إبراهيم العشاء ، ودعا الله سرًّا أن يفك كربه ثم أبدى جدية في متابعة برامج الإذاعة المرئية منصرفاً في وضوح عن أية مجاملة للصبية الزائرة ، لكنّ أذناه كانتا تلتقطان كل كلمة حتى لو همساً بين الأختين ؛ إذ عسى ولعل أن تبدي الصبية رغبة في الانصراف .

- أخاف عليكما من العين!

قالت الصبية لأختها ثم أضافت :

- قليل من الفاسوخ في الكانون يفسخ كل حسد!

تضايق إبراهيم ذلك لأن دخان الفاسوخ وعطور الصبية متى غمرا أجواء الشقة المحكمة الإغلاق سيؤديان بالتأكيد إلى ظهور أعراض حساسية الصدر التي تعاني منها الزوجة .

شاء أن يعترض لكنه خشي أن يثير في زوجته عقدة الشعور بالنقص فتغاضى ثم نهض وفتح نافذة مفتعلا استطلاع الشارع ، وقال :

- الجو بارد جداً لكن المطر توقف .

تنبه إلى زلة لسانه بعد أن التقطت زوجته الحديث فدعت الصبية :

- ستبيتين هنا الليلة . الوقت متأخر والجو بارد جداً .

أجابت الصبية :

- حسنا .. أنا أيضا جئت لأبيت!

obeikandl.com

(3)

بدأت زوجته نوبة سعال حادة ، وفاضت عيناها اللتان احمرتا بدموع ، وبدت أعراض الأزمة تشتد والزوجة تكابر وتحاول أن تجتاز أعراض الأزمة حتى لا تفسد الليلة ولكي ترفع الحرج عن الصبية التي نهضت وفتحت كل النوافذ فدفع تيار الهواء البارد بدخان الفاسوخ خارجا ، حاولت أن تقف فامتدت إليها يد إبراهيم تنهض بها من تحت الإبط والتفت يده الأخرى تحوطها فلامست يد الصبية مكتنزة ناعمة .. سحب إبراهيم يده مفجوعاً كما الملدوغ لكنه والصبية تعاونا على النهوض بالزوجة والخطو بها صوب النافذة لتستنشق هواءً نقيًّا ، تحررت من يديهما ، مضت تخطو متعثرة متأذية من الموقف ومن الأزمة اللعينة التي تفسد الفرح كلما سنح وتشوب السعادة إذا ما حدث وحَّلت وترهق الجسد بالوهن وتطال الوجود بكل الحرج .

قال إبراهيم مواسياً :

- أزمة وتفوت .

انتبه إلى أن التعبير ذاته كُرِّر عشرات المرات في كل أزمة وإلى أن زوجته رجته مرات عدة إلى عدم تكراره إذ أنها سئمته فتدارك بابتسامة شاءت أن تعتذر :

- إنني أتفاءل بعبارة أزمة وتفوت .. ستعبرين الأزمة شأنك كل مرة! .. هه .

لم يصغ إليه أحد ، أضاف :

- الهواء بارد أخشى .

فزعاً التفت يبحث بعينيه عن الطفلين ، هرول إليهما : الأصغر سناً بدا مستغرقاً في نوم عميق ، الأكبر سناً بدا ينتحب في صمت ، احتواه فوق صدره ، كفكف دمعه ، مرر كف يده على وجهه ، خلل شعر رأسه بأصابعه .

- أمي يا بابا .

- أزمة وتفوت!

قالها همساً .

حمل الطفلين على التوالي إلى غرفتهما ، طلب إلى الأكبر سناً أن ينام ، لم يجبه .. تركهما ومضى إلى الصالة ، زوجته والصبية جالستان على الكنبة لصيقتان تتبادلان همساً حديثاً غير مسموع ، خاطب زوجته في ود :

- ها .. كيف حالك الآن؟!

أجابته الصبية ، وقد صوَّبت عينيها الجريئتين الفائضتين بكل دفق أنوثة العشرين ربيعاً :

- الحمد لله .. أفضل .

لعن الخناس الوسواس الذي يلازمه حتى يوقعه في الخطيئة ثم يقرعه ضميره :

- أنت حقير .. أنت نذل!

يؤوب إبراهيم إلى الله .. يستغفره ثم يلوذ بالندم .

- هيا بنا ننام .. أنت تحتاجين الراحة الآن .

قالت الصبية ، أجابت الأخت :

- هيا بنا إلى غرفة الولدين .

اعترضت الصبية :

- أبدًا .. استريحي في فراشك .

إبراهيم ركن إلى الصمت لكنه اقتاد زوجته المتعثرة الخطوات إلى غرفة نومها ، لامس في عفوية متعمدة مواقع الإثارة في جسد الزوجة متعللاً بتعثر الخطوات إذ ربما .. إذ عسى ولعل .. ثم إذ بزوجته تتهاوى على الفراش وتغيب في نوم عميق لا يعوقه الصفير الصادر عن الصدر في إيقاع

منتظم ، فيما ظل قفطان النوم الوردي فوق المشجب دون صاحبته .

- يا رب فوِّت ها الليلة!

أجهش إبراهيم بالبكاء ، عزَّ عليه أن يُغتال الفرح في ليلة عرس ، يدرك هو مدى الألم الذي يجتاح زوجته كلما داهمتها الأزمة ، يقرأ في عينيها الجميلتين الأسى والحزن والشعور الدافق بالقصور والنقص ، لكنه يلاطفها ، يداعبها ، يقدم بكل ود فيلامسها ، يقبلها ، يحتويها فيغمرها الأمان والاطمئنان .

كادت يده أن تمتد تتحسس الصدر لكن طرقات خجلى تناهت :

- لحظة!

فتح الباب ، بدت الصبية واقفة :

- نامت؟!

- نعم ..

- لم أجد قفطان نوم في غرفة الأطفال .. كنت أريد أن أسألها ..

امتـدت يـده بالقفطـان الـوردي يناولهـا إيـاه علـى استحياء ، التقطتـه الـصبية ومـضت ، مـضى إبـراهيم إلى فراشه فيما ظل الباب مواراباً .

obeikandl.com

(4)

موت الزوجة كارثة متوقعة ، لكنه على أية حال كان مفاجئاً ؛ ذلك لأن إبراهيم لم يكن يتوقع أن يطاله الموت ، الموت عنده قد يباغت جاره ، قريبه ، صديقه ، أخاه ، أمه ، أباه .. أما أن يداهم الموت بيته شأن الآخرين فلم يكن وارداً أبدًا ، لكن زوجته ماتت فاكتشف حجم الحب الذي يكنه لرفيقة دربه وأم ولديه ، حزن حزناً موصولاً طيلة أيام العزاء ، لازم ولديه حنواً وإشفاقا ورعباً من غد يكتنفه الغموض والتشاؤم .

- الحزن .

قال له شائب :

- الحزن كما الغدير ما لا تمتصه الأرض من مائه في يوم تجففه شمس يوم آخر!

- بل سأحزن العمر كله!

قال إبراهيم في خاطره ، تصدى بكل قوة لكل الاحتمالات ، تفرغ تماماً لولديه ، يوقظهما صباحاً ، يفطرهما ، يهيئهما ، يوصلهما إلى المدرسة ، يغديهما ،

يعشيهما ، ينام بينهما في غرفتهما على سرير واحد ، لا يقترب أبدًا من غرفة الزوجة الموصدة ، يكفكف دموعهما كلما سنحت خاطرة أو داهمت الولدين ذكرى يلوذ بالبكاء كلما اختلى إلا أن قوة تصديه لكل الاحتمالات وهنت .. نخرها الزمن ، بدا غدير الشائب يجف ، والضرورات تبيح المحظورات .

- اللهم إني أعوذ بك من شرِّ نفسي!
- بل خيِّر نفسك .

أمه ، وكذا أم زوجته لا تريان هذا الرأي ، فإبراهيم لا يزال شاباً ، الولدان صغيران يحتاجان رعاية أم وليس أجدر من خالتهما بأمومتهما ، تلك الصبية العفيَّة الطريَّة المكتنزة ذات الجسد الممشوق المتناسق الفائحة أردانه بأطيب العطور .

صوَّبت الصبية في جرأة عينين لا تُقاومان ؛ فطفرت عيناه بالدموع ، رجته في ذات الحين خلسة أن يقبل ففعل ، علت زغرودة خجلى وفتحت غرفة الزوجة الموصدة ولاحت من بعيد أيام فرح حلوة لا تتهددها أزمة بل يغمرها الحب حتى أقصى حدود الحسد حقًّا .

بنغازي 2008 م

أخويدم الله

"أخويدم الله" امرأة غير عادية ، شابة في الخمسين ، عفيَّة رغم العوز ، مرحة ضحوكة ، مربوعة القد متينة ، ذات عينين مرماشتين مكحولتين تشوبهما آثار رمد ، الأنف صغير يكاد يلتحق بشفتين كبيرتين متشققتين ، أسفل الشفتين على امتداد الذقن وشم عريض ينتهي عند عقد الخرز الأزرق حول العنق ، الأذنان تزدانان بحلقين كبيرين .. تدَّعي "أخويدم الله" أنهما فضيان حتى إذا ما أبطل صدأ ظاهر ادعاءها هرعت "أخويدم الله" إلى صائغ فضة يقوم فوراً بغطس الحلقين فيبدوان جديدين لامعين .

"أخويدم الله" حافية دائماً ، قدماها كبيران مفلطحان مشققان ، جلد بطن القدمين اخشوشن وتيبس وغلظ ، فبدا كما نعل تنتعله صباح مساء ، يغطي الجزء الفوقاني من جسد "أخويدم الله" قميص ذو كمين واسعين ، كالح تكاد تزينه ورود كانت زاهية ، تخفي ثديين متهدلين وبطن بعيج ، الجزء التحتاني من القميص خِيط إلى الجزء الفوقاني من قماش أبيض خشن رخيص يستطيل حتى الركبتين فيبان

سروال فضفاض معقود عند الخصر بعناية ، لحاف "أخويدم الله" رداء تشده بحزام أبيض عريض يلتف حول الخصر ، وعقدة تقوم بين الثدي والترقوة .

هكذا بدت صورة "أخويدم الله" بعد أن استدعتها الذاكرة من على بُعد خمسة عقود ، امرأة استثنائية وفق معايير ذاك العصر ، لا تهاب الرجال ، لا تكترث بهمز صبايا الحي ولا غمزهن ، تجوب بيوت الحي ، شوارع المدينة ، الأسواق دون أن تعبأ بأحد ، فلا أحد يعلم من أين جاءت ، وفدت إلى المدينة وحيدة ، ربما ، من غرب البلاد ، من شرق البلاد ، لا أحد يدري .

تقوّل أناس في "أخويدم الله" انحاز آخرون إلى "أخويدم الله" ، لكن الرأي استقر على أن سمات "أخويدم الله" تشي بأصالة وعراقة وتنبئ عن حسب ونسب ، لكنها أبدًا لا تجيب ، فعندما تُسأل من أين جاءت تصمت ، فإن ألحَّ السائل وحوصرت ، انخرطت في ضحك هيستيري كما البكاء ، وبدت عيناها المغمضتان مثل خطين صغيرين إلى أن تفتحهما إثر نوبة الضحك ، فتبدوان (مطمزتين) ، تعطس ، فيتناثر اللعاب من بين شقوق الشفتين تمسحه والعينين بطرف الرداء .

- درويشة؟!

- مسكونة؟!

عجوز ما حسمت الأمر :

- أخويدم الله نذر!!

- كيف؟!

أجابت العجوز :

- يحدث أحيانا أن تنذر امرأة لا تنجب بكرها إن أنجبت خالصاً لله .

تساءلوا ..

- دليلك ؟!

- أخويدم الله .. سُمِّيت أخويدم الله لأن المرأة نذر خالص لوجه الله ..

ربما اقتنع أناس ، ربما لم يقتنع آخرون ، لكن صمت الحاضرين كان إجماعا على أن تترك أخويدم الله وشأنها ، بارك الإجماع شائب حين قال :

- في "أخويدم الله" شيء لله ..

بدا توجّس غامض في عيون كل الحاضرين أكد على ضرورة أن تلقى "أخويدم الله" الترحاب والعناية في كل

obeikandl.com

بيت تدخله ، فالمرأة لا بيت لها إذ تقيم في صرة تحتوي خرقاً وصرراً صغيرة وربما أشياء أخرى ، لكن "أخويدم الله" لم تكن تلقى الترحاب في كل الأحيان ، إذ لا اعتبار عند "أخويدم الله" للزمن ، تجيء وتذهب متى عنَّ لها ذلك ، قد تطرق بابك عند آذان الفجر ، عند منتصف الليل ، عند القيلولة ، هي تقدم عليك فقط ، وعندما تفعل قد تقلقك ، امرأة لا تهمد ، لا تسكن ، تتوجه إلى المطبخ تغسل المواعين ، تنظف الكنيف ، تكنس وسط الحوش إذا ما اطمأنت إلى أن الأمور على ما يرام لاذت بركن ما وتوسدت الصرة متحفزة في انتظار أي نداء .

تتألق "أخويدم الله" في الأعراس ، تطهو الطعام ، تغسل المواعين ، تعد الشاي ، تغني ، ترقص ، تزغرد ، حتى إذا ما أقبل شباب الحي يدقون طبول الفرح متناغمة مع المزامير والتصفيق رغم النشاز ودوَّت حناجرهم بغناء جماعي صادح ، هاجت "أخويدم الله" وخرجت إليهم راقصة في نشوة وسعادة .

تتألق "أخويدم الله" أكثر في المآتم خاصة إذا كان المتوفى امرأة ، إذ تقوم بتغسيل المتوفاة وتحنيطها وسد

الفتحات بالقطن ثم تكفينها وتبخيرها ، الأمر الذي لا تجرؤ امرأة أخرى على القيام به ، ثم تندفع إلى وسط الحوش تنتحب ، تبكي بحرقة ، تندب حتى إذا ما اشتد العويل والصراخ في هيستيرية جماعية ، قبضت على عصا غليظة تدق بها صندوق ملابس المتوفاة دقات منتظمة قوية معددة بصوت عال متهدج مناقب المتوفاة حتى إذا ما تحطم الصندوق انهارت "أخويدم الله" ووقعت أرضًا متشنجة في نوبة صرع عنيفة ، تهمد بعدها مستغرقة في نوم عميق .

"أخويدم الله" لا تطلب ولا تتقاضى مقابلاً من أحد ، عفيفة ، تقابل المانح إن حدث بابتسامة بلهاء وترد يده :

- المعمول لوجه الله!! .
- لماذا يا "أخويدم الله"؟! .
- الفلوس دنس!! .

ترشقها عجوز حانقة بنظرات غاضبة ..

- مهبولة ... والله مهبولة!!

لكن أي أحد قد يفاجأ بـ "أخويدم الله" :

- اعطني ربع جنيهًا .

يعطيها جنيهًا فترده ، خذيه ، ترفض ، هي تطلب ما يسد ضرورة محددة لا أكثر .

ذات يوم حدث ما لم يكن وارداً على الإطلاق ، إذ ولج الحي رجل ببذلة عتيقة لكنها منشَّاة ، رباط عنق صقلته المكواة فصار لامعاً ، نظارة طبية تظهر عينين جاحظتين ، حقيبة جلدية صغيرة ، توقَّف عند دكان شائب ما ، حيَّاه ثم سأل في صوت خفيض .

- أبحث عن امرأة تدعى "أخويدم الله".

تبادل الشائب نظرات ذات دلالة وشائب آخر ، قالت عيونهما صدق الحدس : "أخويدم الله" تخفي سرًّا رهيباً ، لا بد أن تكون قاتلة ، ربما سارقة ، هاربة من فضيحة ما ، تتخفى بقناع الدروشة ، لكن :

- ماذا تريد منها؟! .

أجاب الرجل :

- مطلوبة في المحكمة .

الحدس صار حقيقة ، جزم الشائبان بذلك ، أجابا في صوت واحد حاسم :

- لا نعرف امرأة بهذا الاسم .

بانت "أخويدم الله" تمشي على مهل قادمة صوب الشائبين والرجل ، ارتبك الشائبان ، توترا ، انتبه الرجل ، وصلت "أخويدم الله" ، حدَّقت مليًّا في الرجل ، تساءلت :

- من هذا الغريب؟!

أجاب الرجل :

- ما غريب إلا الشيطان .. أبحث عن امرأة اسمها أخويدم الله .

توقَّع الشائبان أن يداهم الرعب "أخويدم الله" فتنطلق هاربة لكنها أجابت في عفوية وثقة وطمأنينة :

- أنا "أخويدم الله" .

أخبر الرجل :

- مطلوبة في المحكمة .

نبرت أخويدم الله :

- خير إن شاء الله؟! .

- مطلوبة باعتبارك الوريثة الوحيدة .

إرث (!) خلع الشائبان قناع الحذر ، أبديا فرحاً مفاجئاً ، شاع الخبر في كل الحي ، تسابق الرجال والصبايا

والأطفال يحتفون بأخويدم الله ، عرضت عليها إحدى العجائز رداءً حريريًّا كانت ادخرته ليلف به نعشها بعد وفاتها ، أهدتها امرأة نعلاً جديداً إذ لا يليق أن تكون "أخويدم الله" في حضرة المحكمة حافية ، تخلَّت لها سيدة ما عن حجرة في بيتها تؤوب إليها متى شاءت ، تطوع رجل بنقلها في حنطوره إلى المحكمة يومياً فأخويدم الله غشيمة عفيفة قد يضيع الإرث منها في ردهات المحكمة .

- جاءك العز يا "أخويدم الله" .

صاح رجل .

صرخت أخويدم الله :

- لا .. لا أريد شيئاً .

همهم الحضور ذهولاً ، واجهت "أخويدم الله" اعتراض الحضور بابتسامة ساخرة هزأت بكل العيون الشاخصة المترقبة ، أضافت "أخويدم الله" :

- الفلوس دنس!!

وامتنعت عن كل الهدايا ، رفضت كل الخدمات ، شاءت أن تكون "أخويدم الله" ، المرحة الضحوكة ، العفوية الخدومة ، تبيت في أي مكان متوسدة السمرة ،

تتغذى بأي بقايا طعام ، تجوب البيوت والشوارع والأسواق حافية القدمين ، لكن خبر الإرث جعل أخويدم الله حديث الحي .

قال الشائب للشائب الآخر :

- إن مواقفها تشي بالأصالة .. "أخويدم الله" بنت عائلة .

هز الشائب الآخر رأسه موافقاً :

- صدق حدسنا!!

علَّق آخر :

- ربما .. لكن المرأة درويشة ومسكونة .. ربما تكون نذراً ، إلا أن "أخويدم الله" امرأة شريفة نزيهة طاهرة .

تدخَّل أحد الحذّاق فجأة ، خاطب "أخويدم الله" في ود دافق :

- لا ترفضي الإرث يا أخويدم الله ، الإرث شرع الله ، وفلوس الإرث يمكن أن تبني جامعاً جديداً بيتاً لله ، أو أن تحدث صيانة شاملة للجامع العتيق ، رفض الإرث حرام ، وهو فعل لا يليق بخويدم الله .

انصاعت "أخويدم الله" للقول ، انتهت كل إجراءات إثبات الوراثة ، حكمت المحكمة بأيلولة كل الإرث لأخويدم الله ، فرح بعض سكان الحي فرحاً حقيقياً ، فرح البعض الآخر فرحاً مواكباً ، تقرر أن يقام عرس كبير تزف فيه "أخويدم الله" إلى الخلود عروساً بهية ، توافد الناس على الوسعاية ، دقت الطبول صادحة ، علت ألحان المزامير شجية ، غمر الطرب والغناء والمرح كل الوسعاية ، اخترقت زغاريد العجائز والنسوة والصبايا الأبواب الموصدة تزف العروس في ليلة الفرح ، تدافع الحضور محتفين بأخويدم الله إلى وسط الوسعاية ، رقصت "أخويدم الله" كما لم ترقص قبلاً على الإطلاق ، اشتدت دقات الطبول ، احتد التصفيق حتى تورمت الأكف متوافقة مع إيقاع الطبول والمزامير والأكف ، ترقص "أخويدم الله" بعنف ، تدق تراب الوسعاية بقدمين جلفين حافيين ، يهتز منها الخصر والكتفان والردفان ، تغمض العينين فتبدوان خطين صغيرين ، تلهث .. تسقط متشنجة ، وقد انتابتها نوبة صرع عنيفة ، تهمد ، تتخلى عن الصرة ، وقد ارتخت منها أصابع يديها ، بدا أنها استغرقت في نوم عميق ، لكن

"أخويدم الله" كانت قد رحلت بعد أن اصطفاها الله ، حورية في جنان لا يشوبها دنس .

بنغازي2007م

obeikandl.com

واقعة

"سيدي غريب" - هكذا كانوا ينادونه - لم يكن طويلا ، ولا قصير القامة ، كان بين بين ، متين البنية ، مربوع البدن ، عيناه جاحظتان يديرهما متى دعت الضرورة دون أن يدير رأسه ليرى ، يبدو جاداً ، متوتراً ، حاداً حتى متى جلس بعد صلاة العصر أمام دكان ما مع شائب أو أكثر من أقرانه منصتاً دون كلمة منه ودون حتى مجرد ابتسامة يجامل بها القعود توددا .

رغم كل هذا كان "سيدي غريب" سمح الوجه يسعى إليه أطفال الزنقة في مودة وفرح .. يقرفص ، يتحلقون حوله ، يوزِّع عليهم السكاكر ، يداعب أحدهم ، يحتضن آخر ، يبدو سعيداً فرحاً ، عفويا بشوشاً حتى أنك قد تخاله يبتسم .

"سيدي غريب" يصحو قبل آذان الفجر ، يتوضأ ، يصلي ، يتهيأ ليوم آخر ، ينتعل حذاءه العسكري القديم الذي كان اشتراه منذ سنوات من سوق التركة ، يرتدي بذلته الكاكي ذات الأزرار النحاسية التي كان استلمها من

أمين مخازن المصلحة عهدة حكومية ، يحتسي كوباً من الشاي مخلوطاً بالحليب كان أعده ، ذلك لأن "خالتي سريب" - هكذا كان ينادونها - تكون في ذلك الوقت من الصباح الباكر مستغرقة في نوم عميق ، يخرج في هدوء دون ضجة حتى عندما يصفق باب البيت ذلك لأن "خالتي سريب" كانت نهرته عدة مرات عندما أحدث ضجيجاً أيقظها من استغراق في نوم غويط .

"سيدي غريب" الذي كان قد تجاوز الأربعين خريفاً ، و"خالتي سريب" التي كانت قد تجاوزت الثلاثين ربيعاً كانا زوجين غير متوافقين ، فهما حتى بعد مرور أكثر من عشر سنوات على زواجهما لم يتمكنا من الإنجاب رغم ما تميزت به "خالتي سريب" في العشرين من أنوثة طاغية وعافية متوهجة ورغم ما كان يبدو على "سيدي غريب" في الثلاثين من فحولة وقوة وصحة دافقة .

استحوذ اليأس على حياتهما في غياب الإنجاب ولم يعد بينهما ما تقوم عليه علاقة بين زوجين عدا أن تكون "خالتي سريب" نفّاقة يسكن إليها "سيدي غريب" صاغراً من أجل لقمة تسد رمقه أو هدمة نظيفة مكوية يختال بها

مزهوًّا في يوم جمعة بين المصلين أو كوب شاي يشد أزره بعد قيلولة أي يوم ، يعيشان معاً في بيت صغير متصدع الجدران كالح الألوان يتوسطه حوش صغير غير مسقوف تقوم في جنباته داران : واحدة للنوم ، وأخرى للمقعد وأحيانا لنوم أحدهما متى بلغ سوء الحال بينهما مداه ، وكنيف تنبعث منه في الغالب روائح كريهة ، ومطبخ يتسع لشخص واحد بالكاد .

تشيع العجائز عن "خالتي سريب" في وشوشات آخر الليل عندما تطفأ الأضواء ويهجع الجميع في حوش عرس أو بيت عزاء ، أنها بنت أبيها وأن أمها التي لم تنجب سواها كانت أشهر من يحيي أفراح الأعيان في ذاك الزمان ، تجيد دق الدربكة والغناء والرقص والغنج الذي يثير الفحول وأيضا - تقول العجائز بعد العياذ بالله - عموم النساء .

نميمة العجائز التي تطال "خالتي سريب" تنتهي بالاستغفار والعياذ بالله من شر الوسواس الخناس تعويلاً على أن الله غفور رحيم وأن نميمتهن كانت بفعل الشيطان وقد فاتهن أن الشيطان ربما يكون قد خلد إلى النوم في تلك الساعة المتأخرة من أعقاب الليل .

"سيدي غريب" لم يكن يعبأ بقول أحد من الرجال أو النساء ذلك لأنه ارتضى "خالتي سريب" وقبل بها رفيقة عمر تماماً كما كانت وأيضا كما تكون إذ تستغرقه كل حين تلك الأيام الواقعة على مسافة عدة سنوات حين كان هو شاباً يافعاً قويًّا ، وكانت "سريب" يافعة شهية ، يلاحقها في كل الأمكنة وفي جميع الأوقات ، تتمنع لكن عينيها النجلاوين تصرخان به أن أقدم إني راغبة .

أقدم "سيدي غريب" مأخوذًا بقول الأم : "سريب" يتيمة مكسورة الخاطر لكنها صبية تبحث عن رجل يردعها ويصونها ، أما ما يشاع عني وابنتي ـ تضيف الأم ـ فمجرد افتراء لا يلحق إلا الفقراء .

"تكذب" .. قال أبواه : "سريب" ابنة أبيها وأمها ذات صيت عفن ؛ لا ترقى هي ولا أمها إلى مستوى المصاهرة ، لكن "سيدي غريب" أقدم ، فتلك الغرة اليافعة كانت أنوثة طاغية ، صرخة جنس مدوِّية تفجِّر الرغبة جامحة في ذوات الفحول ، تكتسح أي اعتراض ، تطيح بأي معيار ، تشل كل عقل وتوقد النار في كل وجدان .

تزوج "سيدي غريب" "خالتي سريب" ، واصطحبها إلى المدينة حيث يضيع الجزء في الكل ويضيع الكل في وسط

الزحام والضجيج رقماً مضافاً إلى نكرات كُثر ، والتحق يعمل ساعيًا في مصلحة ما ، وبدأ حياة جديدة مغايرة ، ينهل كل يوم في نهم من أنوثة متدفقة لا تنضب .

تأوه ...

"سريب" اليوم لم تعد "سريب" تلك التي كانت وما كان يظنه "سيدي غريب" حبًّا كان مجرد نزوة ، فورة شهوة ، فاكهة طرية ناضجة شهية تقطر لذة وإغواءً وضعها قدره في صحنه فأقدم يشبع جوعه في شغف ، هي أيضا فعلت حتى إذا ما اكتفيا نفر كلاهما من الآخر وصارا لا يطيقان الحياة سويا إلا مرغمين .

هما على أية حال اعتادا الحياة معاً ، حياة نمطية ذات إيقاع ثابت مألوف لا يتغير ، سكنا إليها وقبلا بها وبرراها ربما كل واحد منهما على حدة ، فالإنسان يقبل مرغماً كثيراً من الأوضاع حتى يألفها رغم النفور فتصير بمرور الزمن جزءاً منه لا يقوى على فصله عن كله وإلا صار كله بدون جزء كياناً ناقصاً .

ما يثير قلق "سيدي غريب" كان ذلك الشيء الذي يطبق على صدره بين حين وحين ، شيء تشتد وطأته كلما

لاحت "سريب" وقد اغتسلت وتعطرت وتزيَّنت وتوهَّجت وبدت راغبة لكنها تصده متى اقترب ، تعافه ، تنصرف عنه إلى أي شأن فتلحق الإهانة برجولته ، تحرمه في استخفاف من حق شرعي لكن "سيدي غريب" كان يلجأ إلى الوضوء والصلاة خشية أن ينجب ذلك الشيء الذي يطبق على صدره شكوكاً تؤدي به إلى ما لا طاقة له على مواجهته .

- الرجل راضي!

العبارة اخترقت أذنيه ذات مرة ، وربما كان يدرك أنه المعني بها لكنه لم يكترث أو بدا كذلك على الأقل فمجرد التفكير في أن تكون "سريب" على علاقة برجل آخر يعذبه يجعله ينهار ، يتهاوى ، يتضاءل ، يتلاشى ، يلجأ إلى الشارع ، يحتمي بالضجيج ، ينتصر بقوة ضعفه على عذابات معاناته ، يسكن إلى عجزه ثم لا يلبث حتى يجر خطاه عائداً إلى البيت .

ذات مرة قرر أن يفاجئ "سريب" ، أصاخ السمع بعد أن تخطى العتبة إلى السقيفة ، ارتعب خشية واقعة ، تعثر ، تنحنح ، صار في وسط الحوش ،"سريب" في

المطبخ ، "سريب" في الكنيف ، "سريب" مضطجعة تتصنت ، "سريب" وحيدة لكنه لا يقرؤها السلام لأنه حتى إن فعل فهي لا ترد تحيته فقد انقطع بينهما الكلام أو كاد ، لكن وجهه تهلل ، اعترته فرحة ، اشرأب عنقه في زهو ، لعن الشيطان في سره ألف مرة ، خطا إلى دار نومه لكن الشيطان أدركه ، ألقى بالجمرة في قاع أعماقه ملتهبة ، محرقة .

"الفتى يعقبه على البيت ضحى كل يوم".

ذلك الشائب الوقح الكاذب قذف بها ظهره بعد عصر ذات يوم يقولها بصوت يكاد يكون مسموعاً لشائب آخر لا يكاد يسمع ، إذ تساءل :

- آه .. ماذا قلت؟!

تصيبه الشظية ، معني بها هو دون غيره ، يزج به ضعفه إلى موطن عجزه ، تماماً ككل مرة ، إذ كيف تكون الحياة دون "سريب"؟! تلك القابعة في بيته ، تطعمه ، تؤنسه ، موحش كئيب بيت دون "سريب" ، فراق "سريب" دنو أجل بل نهاية محتمة .

يغتسل ، يتوضأ ، الماء الدافئ يريحه رغم عفونة الكنيف ، يخليه من كل ما يعتمل في أعماق ذاته من

معانـاة ، يـسكن ، يرتخـي ، الجـسد منـهك ، الأعـضاء تتنادى ، تهمد ، يغمض الجفنين المواربين ، يداهمه النوم ، تعوده الرؤيا اللعينة ، تماماً كمـا اليقظـة ، تبـدو "سـريب" وقد اغتسلت وتعطَّرت وتزيَّنت وتوهَّجت وبدت راغبـة ، تطلُّ عليه مبتهجة في دار المقعد :

- تصبح على خير يا "غريب" .. الليلة ليلـة الرجـل الآخر .

تصفق "سريب" بـاب دار النـوم بقـوة ، ينـتفض واقفاً ، مرعوباً ، مفزوعاً ، غاضباً ، باحثاً عـن "سـريب" مناديًا في صرخات مدوية لاهثة :

- سريب .. سريب .. سريب .

"سريب" مستلقية في دار المقعد ، نائمـة وحيـدة وقـد تعـرَّى : سـاقاها ، فخـذاها ، لحـم مكـتنز يتـوهج حـرارةً وشهوة ، الصدر عارٍ ، النهدان نافران ، تبدو كما صبية لم يمسسها بشر تقطر عسلاً كما الرُطب جنيًّا .

دنا "غريب" .. امتدت يـده مرتجفـة تتحـسس نهـدين نافرين بحلمتين قرمزيتين لم تحتويهما شفتا رضيع ، انتفضت "سريب" مفزوعة تصرخ بـه أن ابتعـد ، تنـهره في قـسوة ، تصده ، تصيح به :

- لا تلمسني .. عفونة صيف قائظ تكفي!

تعوَّد أن تصده ، في أوج النشوة والرغبة تهده ، يتراجع صاغراً منكسراً مهزوماً ، يرتكز على ساقين أوهنهما القهر ينوءان بعجز لا يحتمله سواه ، لكنه مسبوقٌ بضعفه تحمله قدماه صوب دار النوم فيلجها وحيدا ذليلاً ، يرتمي على الأرض دون الفراش وقد خارت قواه ، ينخرط في بكاء صامت .. ظلَّ يخشى دوماً أن يطرق أذني "سريب" لكنه لا يلبث وقد أضناه الحرمان والعجز حتى يستسلم للنوم ، فالرؤيا ليست إلا خطرفة و"سريب" قد تكون على حق ، قيظ الصيف لا يطاق ، وغدا قد يكون يوماً آخر .

الغد كان يوماً آخر ، وليس كما غيره من الأيام ، فـ "غريب" لم يصح قبل أذان الفجر ولا بعد أذان الفجر ، ظل راقداً كما ميت ، الباب موصد ، الدار مظلمة ، الهدوء يُغرق المكان في صمت القبور .

ذاك الضحى ضجَّ وسط الحوش بقهقهات مدوية اخترقت الباب الموصد لتقرع بشدة أذني "سيدي غريب" المسبلتين ، تأوهات حارَّة تسربت عبر شقوق الباب المغلق

فكادت تبدد ظلام الدار ، أصوات احتكاكات ، فحيح ، أنات تصيح به أن استيقظ يا رجل .. هبَّ واقفاً مذعوراً مناديًا :

- سريب .. سريب .. سريب .

ركل الباب الموصد بقدمه ، صار في مواجهة الواقعة ، بهت ، اختفى الفتى كوميض البرق ، "سريب" ظلَّت واقفة شامخة تشع عطراً وأنوثة ، فستان النوم الشفاف لا يحجب النهدين النافرين ، ولا الحلمتين وقد توردتا ونضحتا عسلا شهيا ، الفخذان ، الساقان نبيذيتان مكتنزتان تتحديان فحولة رجل ، خارت قوى "غريب" فانثنى ثم هوى ساقطًا بين قدميها ، عينان مغمضتان ، وجه أصفر ثم أسود ، أسنان تصطك ، أطراف ترتعد ، أنفاس متقطعة ، وعي غاب أو كاد ..

انثنت "سريب" وانحنت فوقه تحتويه ، أدخلت ذراعيها تحت إبطيه ، نهضت به تحمله إلى دار النوم ، وقد التحم اللحم باللحم ، هزَّت الجسد منه رعشة ، عبق العطر اخترق أنفاسه فوعى ، دب الشبق منه في كل الأعضاء فما رأى غير "سريب" يعانقها ، يمتص رحيق

الشفتين ، يحتويها ، ينصهر الجزء في الكل ، يلتحم كل اللحم بكل اللحم ، فاكهة طرية ناضجة شهية وضعها قدره في صحنه وكفى ..

بنغازي 2006

obeikandl.com

ليل الصب

ليل بنغازي خواء ، ليل بنغازي صمت ، ليل بنغازي يباغتني كل ليلة قبل أن يخيِّم الليل ، ليل بنغازي أطول من نهارها في كلّ الفصول ، ليل بنغازي يُطبق على الصدور فتضيق ، تنازع ، تتوق إلى نسمة ، تستجدي هبَّة ريح ، تصدك فضاءات بنغازي مفرغة الهواء .

أشتاق أن أسمع زغرودة ، ضحكة عذراء ، ضجيج صبايا ، طفلا يناغي تلاعبه أمه ، همسة حب ، عينين تحتوياني فاختبئ في الحدقتين ساكنًا ، أتدثر بجفنين هامدين وأخلد آمناً لحب لا ينتهي .

- يا ليل الصب متى غده؟!

كانت نغمة محمولي المميزة ، التقطته فرحاً ، الشاشة الصغيرة تظهر رقماً غريباً ، ترددت ، خشيت أن يكون الطالب غير مرغوب مني ، توقفت النغمة ، ليتني أجبت ، ربما كنت سمعت صوتاً يفك قيود وحدتي ، يبعث في ليلي الحياة .. اشتد فضولي ، التقطت المحمول أدقق الرقم الغريب ، أضاءت الشاشة الصغيرة ، ارتجفت ارتباكاً ، ظهر الرقم الغريب ثانية ينادي :

- يا ليل الصب متى غده؟!

- نعم .

جاءني صوت رقيق ناعم :

- أهلاً .

راقني الصوت ، كان ذا بحة مشحونة بمشاعر بكر تنبئ عن إقبال ، دافئاً كان الصوت هامساً ، أجبت مُقدماً :

- أهلاً .

نبرت في حياء؟!

- أأنت فائز؟!

أجبت :

- إن شاء الله!!

- لا .. أنت لست فائزاً .

أجبت يبرحني الفرح :

- لا .. أنا لست فائزاً .

- كنت أعتقد أنك فائز!

قلت مداعباً إياها في حذر :

- ربما!!

تساءلت في برود :

- والنبي؟!

صمتت ، انتظرت ، لم تنطق تتوقع أن أبادر ، لن أفعل أنهيت الحوار دون أن أنبس وضعت المحمول جانباً ، داهمني الخواء والصمت .

دقات ساعة يدي التي أكاد أسمعها حتى إن أصخت في نهاري استقوت على أذني بسكوت ليل بنغازي واشتدت ضرباتها متلاحقة تنال مني ، ترشقني بالتوتر ، تستفزني ، تتلاحق عقاربها على عجل خصماً مما تبقى من رصيد العمر .

- يا ليل الصب متى غده؟!

فرحت كما طفل ، التقطت المحمول ، كدت أجيب لكنني رأيت أن أتأنى ، لا بد أن أنتظر قليلاً ، هي أيضا ستنتظر قليلاً ، سنمارس فعل الانتظار سوياً ، يجب أن أبدو رزيناً ، لست طفلاً يقدم على قطعة حلوى في خفة ونهم .

توقف نداء المحمول ، شئتها ملاعبة فكانت خيبة ، الملاعبة فن دقيق ما أجدته ، هي أيضًا لم تجده ، ستعاود ،

ليس لائقاً أن أبادر لكن إن هي فعلت سأتشبث ، الخواء قاتل ، وليل بنغازي أضناني ، وأشد ضروب الغربة هي تلك التي تقبع في أعماق ذاتي ، لن أكون رزيناً ، لا وقار في الحب ، سأتهور ، أحتاجها ، ربما هي أيضًا .

- يا ليل الصب متي غده؟!
- أهلا .
- أهلا .
- مشغول أنت؟!
- لا .
- لم تجب على ندائي .
- عفواً .
- لن أطلبك ثانية .

فزعت :

- لا .. أرجوك!

بدا الفرح في نبرة صوتها :

- سامحتك .
- لكني أخشاك .
- لماذا؟!

obeikandl.com

- أخشى أن أضعف فأنجر إلى الحب .. إن حدث سأتهور .
- أنا أيضًا .
- إن أحببت أجن .
- أنا أيضًا .

استطردت هي :

- أمضى ليلي وحيدة أنوء بأحزان مضنية ، الصمت في ليل بنغازي كفن يطبق على أنفاسي ، أشتاق أن أسمع زغرودة تعلن الفرح ، ضحكات شابة تجلجل في أنحاء شارعنا ، أشتاق حبًّا أسكن إليه ، ألقاه أنيساً يبدد ضجري ، أخلد إليه آمنة .

صمتَّ انفعالا ، أجهشت ، ركنتُ إلى الصمت عجزًا ، فاجأتني كلماتها ، ما كنت أتوقع أن يتجرأ ليل بنغازي على بكر تتوق إلى الفرح فيدمي منها الوجدان ، تبوح فيأتي البوح كما بوحي ، رحماك يا ليل بنغازي يا سيد الأحزان .

قلت :

- تماسكي .

- .....
- هل تسمعينني؟!
- آسفة سامحني .

قلت :

- تراودني مشاعر .

قاطعتني :

- أنا أيضاً ارتحت إليك .
- على هذا النحو تبدأ دائماً الحكاية .
- بلحظة صدق .
- ربما لحظة ضعف .
- الضعف في هذا المقام صدق .
- حتى وإن أخفيته .
- في المطلق صدق .

أعجبني أن أكون محاوراً لبقاً كما هي ، قلت مداعباً :

- أنت حلوة؟
- أنت لم ترني .
- هي فراسة .
- لكنك لم ترني .

obeikandl.com

- من أنت؟!
- أمل .
- أنا فائز .

ضحكت ، سألتُ :

- كيف وأين نلتقي؟

صمتت ، فزعت ، خشيت أن تحاصرها الظنون ، كان يجب أن أتريث ، ناديت :

- أمل .. أمل .

أجابت بصوت بدا بعيداً .

- نعم .
- ...
- نلتقي عند شط البحر بعد حين .

انتفضت قائماً ، انطلقت في شوارع مدينتي العتيدة متحدياً ليل بنغازي الكئيب ، فها قد أقدم الحُبُّ ندياً كما نسمات فجر رطيب ، كان يقودني الفرح الدافق صوب حياة بهيجة لا يغشاها ليل ، فجأة ، كُبحت ، يا إلهي ، أي شط وأي حين؟! لجأت إلى محمولي أناديها ، جاءني رد هدني :

- الرقم الذي تطلبه لا يمكن الوصول إليه!!

بحثت عن "أمل" في كل الشطآن ، ذروت حبات الرمل في كل الأنحاء ، وشوشت الأصداف والمحارات وحصى البحر في كل الأحيان ، لن يحول ظلام الليل بيني وبين "أمل" مهما اسودَّ ، فلا بد أن ينتصر الحب وتزدهر الحياة ..

أطبق اليأس ، ارتميت على الرمال الندية ، أمواج البحر تهدر ثم تنتهي عند قدميّ ، تمنيت أن يداهمني فعل ينتشلني من تخاريف الهوى ، عزَّ على نفسي هواني وما لحق بي من أسى ، نهضت رغم الإعياء ، مشيت مبللاً متعثراً صوب المدينة ، الأضواء خجولة خافتة ، ظلام الليل يطبق شأن الصمت على كل الأنحاء .

ناديت :

- يا ليل الصب متى غده؟!

فزعت ، أتراها هي مرة أخرى؟! ، ربما شاءت أن تعتذر ، أي عذر ستبديه لن أقبله ، لكن لا بد أن أجيب على النداء ، ذلك أن "أمل" مهما بدا منها فهي الحب والحياة .

توقف النداء ، ناديتها ، أجابني صوت كما المرة السابقة :

- هذا الرقم لا يمكن الوصول إليه .

عاد النداء ثانية :

- يا ليل الصب متى غده؟!

أطفأت المحمول ، أجبت في انكسار :

- أقيام الساعة موعده؟!

بنغازي 2006

obeikandl.com

السيرة الذاتية للكاتب

محمد علي الشويهدي

ولد في مدينة بنغازي ـ ليبيا في 1942/4/23 م .

حائز على إجازة (ليسانس) الآداب من جامعة بنغازي/ ليبيا .

صحفي وكاتب قصة قصيرة .

حائز على جائزة الدولة التقديرية في الآداب (القصة القصيرة) 2009 م .

بدأ العمل الصحفي محررًا متفرغًا في صحيفة (الحقيقة) الليبية الواسعة الانتشار في أواخر عام 1968 .

ترأس تحرير صحف يومية : "الجهاد" ، "الشورى" ، ومجلة شهرية ثقافية (الثقافة العربية) بنغازي/ ليبيا ، وأخرى أسبوعية جامعة (الموقف العربي) نيقوسيا .

عضو مؤسس برابطة الصحفيين الليبيين .

عضو مؤسس برابطة الكتاب والأدباء الليبيين .

* * *

obeikandl.com

الإصدارات :

1- أحزان اليوم الواحد (قصص قصيرة) .

الطبعة الأولى 1973م مكتبة قورينا ـ بنغازي/ليبيا .

الطبعة الثانية 1978م المنشأة العامة للنشر والتوزيع ، طرابلس/ ليبيا .

الطبعة الثالثة 1999م مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت/ لبنان .

2- أقوال شاهد عيان (قصص قصيرة) .

الطبعة الأولى 1976م الشركة العامة للنشر والتوزيع ، طرابلس/ ليبيا .

الطبعة الثانية 1999م مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت/ لبنان .

3- صرخات في زمن الصمت (نصوص أدبية) .

الطبعة الأولى 1999م مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت/ لبنان .

4- كُحل العين (قصص قصيرة) .

الطبعة الأولى 1999م مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت/ لبنان .

5- الموجة والرحيل (مختارات قصصية) .
الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ سلسلة آفاق عربية ـ القاهرة 2015 .

obeikandl.com

الفهرس

قول الحاكي ——— 5
السوق القبلي ——— 7
نواح الحمام ——— 99
تخاريف الخريف ——— 115
النادل مرزوق ——— 128
ولد سوق ——— 144
الديوان ——— 166
الكرمود ——— 183
الصخرة ——— 203
احتقان ——— 212
يا أسيادي ——— 228
الأزمة ——— 241
أخويدم الله ——— 254
واقعة ——— 265
ليل الصب ——— 276

obeikandl.com